صفحات مضيئة

في

التصور والسلوك الديني

جمع وتأليف

إسماعيل المجذوب

طبع بموافقة وزارة الإعلام ٨٠٥٩٥ بتاؤيخ ١٣ / ٩ / ٢٠٠٥

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا صراطه المستقيم، وأسأله تمام الهداية، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الذي جاءنا بالمحجة البيضاء رحمةً من الله تعالى، يعلمنا كلَّ خير، ويرشدنا إلى كل ما نحتاج إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى السابقين الأولين من أصحابه المهاجرين والأنصار الذين أخبرنا الله تعالى بأنه رضي عنهم وعن الذين يتبعونهم بإحسان إلى يوم الدين.

وأسأل الله تعالى أن يجعلنا وأهلينا وأحبابنا من هؤلاء التابعين، وأن يحشرنا معهم على الحوض الذي هو الملتقَى الطيبُ لأهل الحق مع حبيبهم المصطفى ﷺ بعد انتهاء حياتهم التي طابت بضياء الصبر على الاستقامة، وأنوار العلم والبصيرة، وراحة القلوب السليمة والمتوكلة على من بيده ملكوت كل شيء، والمتنعمة بحلاوة حبه عليه الصلاة والسلام والشوقِ إلى لقائه .

وبعد فإننا نعيش في آخر زمن هذه الأمة المحمدية، الذي كثرت فتنه وتزايدت، ولكن كثر فيه أيضاً الخَيْرُ وتزايد، حتى تحقق فيه ما أخبر به رسول الله ﷺ بقوله: « **مَثَلُ أُمّتِي مَثَلُ المَطَرِ لاَ يُدْرَى أَوّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ** »[1] وتزايد فيه الإقبالُ على هذا الدِّين، الذي جعله الله تعالى سبيلَ النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة .

كثرة الرؤوس الجهال

ونتج عن ظهور الرؤوس الجهال المبتعدين عن أسس العلوم الشرعية ومسلَّماتِها – مع قبول الناس لأقوالهم – ضَيَاعُ كثير من الطيبين المبتعدين عن أنوار العلم، والْتَبَسَ عندهم الحقُّ بالباطل، والخيرُ بالشر، والصوابُ بالغلط، في كثير من الأمور، ونتج عن ذلك أمراضٌ اجتماعية مبعدة للناس عن الصراط المستقيم .

(١) رواه الترمذي/ ٢٨٦٩ وصححه والإمامُ أحمد / ١٢٣٤٩ عن أنس ﷺ ، ورواه البزارُ / ١٤١٢ عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما .

الغاية من هذه الرسالة

وقد رأيت من المفيد أن أكتب رسالةً للطيبين الراغبين في اتباع الحق، والحريصين على سلوك السبيل التي عاش عليها الصحابة ﷺ الذين رباهم وزكاهم أعظمُ المربين ﷺ، وعاش عليها التابعون وأتباعهم، والأئمة المجتهدون وأتباعهم على منهج العلم والمعرفة .

وأذكر في هذه الرسالة – التي أرجو أن تكون تذكرةً للمُهْتَمِّيْنَ بدينهم بشكلٍ عام، وللشباب منهم بشكل خاص – بعضَ ما أراه نافعاً من الأسس والقواعد التي قد تَغِيْبُ عن كثير من الإخوة، وبِغَيابِها فيما أرى تكثر الانحرافات، وتكثر دواعي الصراع والشحناء والخلاف السلبي بين المسلمين؛ لعل معرفة هذه القواعد والأسس ومراجعتها تكون سبباً للعافية، فكثيراً ما تكون المراجعة والمدارسة عند المنصفين الموفقين سبباً مُهِمَّاً في التمييز بين الحق والباطل، وفي إزالة كثير من دوافع التشنج والتنافر مِن الإخوة عندما يُبدون آراءهم ويتخذون مواقفهم .

كما أذكر فيها أموراً ونصائحَ، أرجو أن يجعل الله تعالى فيها نفعاً لطلاب العلم الشرعي المختصين، ولغيرهم من طلاب العلم غير المختصين (٢) ؛ لتكون إن شاء الله تعالى تذكرة نافعة تساعد على السير في طريق الاستقامة، وتحمي من الانحراف إلى طُرُقٍ تُبْعد عن سواء السبيل .

ترتيب هذه الرسالة وفُصولُها

وإني أوضح هذه الأمور وأبينها مختصِراً في فصول يتألف كلٌّ منها من نقاط، ليكون هذا الترتيب مساعداً على استيعابها، وميسراً للرجوع إلى مسائلها .

وتتألف هذه الرسالة من الفصول التالية :

---

(٢) بالإخلاص لله تعالى وبالحرص على طلب العلم الشرعي سبق بالعلم والصلاح كثير من الإخوة غير المختصين بطلب العلم الشرعي أناساً مختصين مع سبقهم وإتقانهم لما هم مختصون به من العلوم والأعمال الأخرى .

الفصل الأول: دينُنا دينُ الأُلفة .

الفصل الثاني: منهج بناء الإيمان .

الفصل الثالث: في التقليد والاجتهاد .

الفصل الرابع: في وجوب الاهتمام بدراسة علم الإسناد وبالانتفاع به .

الفصل الخامس: في الابتعاد عن المحدثات التي حذَّرَ منها النبيُّ ﷺ .

الفصل السادس: في الأولياء والكرامات .

الفصل السابع: في ذكر الله تعالى .

وأرجو من أرحم الراحمين المعونةَ على ما حرصت عليه من الخير، وأسأله الهداية والتوفيق، وأن يجعل هذه الرسالة خالصة لوجهه، مقبولة عنده، وأن يجعلها لي ولمن يقرؤها باباً من أبواب العافية والحصول على مرضاة الله تعالى بالعمل الصالح والاحتكام إلى شريعة الله السمحة لنكون سائرين في طريق الحق الموصل إلى دار السلام التي أعدها الله تعالى للذين طابت قلوبهم وأقوالهم وأحوالهم وأعمالهم، الذين تقول لهم الملائكةُ غداً ﴿ **سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾ [الزمر/ ٧٣] .

تذكرة للقارئ الكريم

يفيدنا قبل أن نقرأ هذه الرسالة أن نلاحظ الحقيقة التالية:

وهي أنه يكثر في حياتنا أنَّ من نشأ على أمر منتشرٍ في حياته أو بِيئتِه وأَلِفَه فإنه يميل إليه في العادة ولا يستغربه .

ويستغرب أمراً آخر لم يَعْتَدْ عليه واعتاد عليه غيرُه .

وأنَّ مَنْ أحب أمراً فإنه لا يسهل عليه أن يدرك أنه باطل .

وأنَّ مَنْ كره أمراً فإنه لا يسهل عليه أن يدرك أنه حق؛ فالحب والكراهية يُعميان كثيراً من الناس.

ولذلك كان من الضروري لمن يريد معرفة الحق، وخصوصاً في الأمور التي نشأ عليها أو أحبها أو كرهها، أن يَصْدُق في الاستعانة بالله تعالى أن يُخَلِّصَهُ من غلبة سلطان العادة والهوى .

لأن من الصعب على المرء أن يرى الخطأ في نفسه، والصوابَ عند من يخالفه، كما أنه من الصعب أن يرى عيوب نفسه أو أحبابه، ومن السهل أن يرى عيب من يبغضهم، أما رؤية محاسن من يبغضهم فهي أكثر صعوبة .

وظَنِّي بالقارئ الكريم، وأنا أقدم هذه النقاط، أن يتعامل معها بموضوعية وتجرد وحسن ظنٍّ، بعيداً عن غلبة التأثرِ بالنشأة التي نشأ عليها، وعن ردود الأفعال والهوى .

والذين وفقهم الله تعالى أهواؤُهم تتبع الحق، ولا يصعب عليهم ذلك عندما يرون الحق أينما وجدوه ولو مع مخالفيهم، لأنهم قد عافاهم الله تعالى من غلبة الهوى.

ومن المهم أن يعلم المؤمن أنه لا عذر لمن ضل عن الحق بسبب غلبة الهوى .

وإني أسأل الله تعالى أن يسلمنا جميعاً من هذه الأدواء، ويمن علينا بالرغبة في الانقياد للحق أينما ظهر، ويحمينَا من التعصب لمجرد المألوف، ومن تحكيم الهوى .

وليس ميزانُ الحق رأيِي ولا رأيَ غيري، ولا ما ترجح عندي ولا ما ترجح عندك، إنما الميزان هو الحق الذي جاء من عند الله تعالى .

والله تعالى قد تفضل على هذه الأمة بحفظ دينها العظيم، حيث حفظ لها كتابه القويم وسنة نبيه ﷺ وأمر بالرجوع إلى هذين المرجعين الذين جعلهما سببين للهداية، فالاستضاءة بهما ضرورية، وخصوصاً في ظلمات الفتن، وعندما تلتبس على الناس الأمور قال تعالى: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ [النساء / ٥٩] .

فلله الحمد على هذه النعمة التي جعلت كل مؤمنٍ من هذه الأمة مهما واجهته الشبهات والأزمات يجدُ ملاذاً آمناً يأوي إليه، وحصناً حصيناً يحتمي به، ونوراً مبيناً يبدد ما حوله من الظلمات .

هذا وقد تزايد وضوح أهمية هذا الملاذ بسبب كثرة الاختلافات غير المنضبطة بموازينِ الشرعِ وتوجيهاتِه، ونتج عن ذلك كثيرٌ من الآثار التي يرضاها الشيطان [٣] من الخصومات والتنافر، بل من الشحناء والعداوة والبغضاء الحالقة التي تحلق الدِّين .

وسيأتي معنا في نهاية الفصل الأول من هذه الصفحات عند ذكر العامل السابع من العوامل الموصلة إلى الألفة أنه لا بد بالإضافة إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ أن نستضيء بسنة الخلفاء الراشدين ﷺ؛ فقد أرشدنا نبينا ﷺ عند الاختلاف أن نلتزم سنتهم ﷺ مع سنته، وكذلك الالتزام بالمنهج العام الذي سار عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﷺ مع الأدلة من القرآن والسنة .

تذكرة لطلاب العلم

وإنَّ من المفيد إن شاء الله تعالى أنْ أُذَكِّرَ من أكرمهم الله تعالى بشيءٍ من نور العلم أن يجاهدوا في تنوير الناس وهدايتهم والسعي في عافيتهم من العداوات والأحقاد عملاً منهم بتوجيه رسول الله ﷺ إلى النصيحة التي بالغ في رفع شأنها، حتى جعلها كأنها الدينُ كلُّه فقال: ((**الدّينُ النّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامّتِهِم**)) **[مسلم/ ٥٥]** .

أُذَكِّرُ من أكرمهم الله تعالى بشيء من أنوار العلم وَحَمَّلَهُم المسؤولية أن يكونوا القدوة الصالحة لمن يتعلم منهم في سلامة الصدر وغلبة الخشية من الله تعالى والخوف من سوءِ الحساب، وأن يغرسوا في أتباعهم من نور العلم ما يورثهم تلك الصفات؛ فَنُورُ العلم أهمُّ ما تُدَاوَى به هذه الأمراض، وأعظمُ ما يساعد على سلوك طريق السلامة والعافية .

---

(٣) عن جابر ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((**إنّ الشّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ. وَلَكِنْ فِي التّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**)) **[** مسلم / ٢٨١٢ **]** .

وأُذَكِّرهم أن يشكروا الله تعالى بأن يبينوا لأبناء هذه الأمة ما يُقَرِّبُ إلى الحال الطيب لأهل الإيمان، الذي بينه رسول الله ﷺ بقوله: ((**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**)) **[مسلم / 2586]**؛ فقيامهم بهذا الواجب من خير خصال الخير، كما أني أذكرهم بالدور الذي أمرهم الله تعالى بالقيام به من البيان، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَه** ﴾ **[آل عمران / ١٨٧]** .

وأُذَكِّرهم أيضاً أن يكون هذا البيان ممزوجاً بشيء من الرفق واللين واستيعاب الآخرين والتأني وعدم التسرع؛ فما كان الرفق في شيء إلا زانه .

فَعَنْ جَرِيرِ بن عبد الله البجليِّ ﷺ عَنِ النّبِيّ ﷺ قَالَ: ((**مَنْ يُحْرَمِ الرّفْقَ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ**)) **[مسلم / ٢٥٩٢]** .

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنّ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((**يَا عَائِشَةُ إِنّ اللّهَ رَفِيقٌ يُحِبّ الرّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**)) **[مسلم / ٣٥٩٣]** .

وعَنْها رضي الله عنها، عَنِ النّبِيّ ﷺ قَالَ: ((**إِنّ الرّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ شَانَهُ**)) **[مسلم / ٢٥٩٤]** .

والله الموفق والهادي لسواء السبيل .

أهم فصول هذا الكتاب

ورأيت أنَّ أهم ما أبدأ به من هذه الفصول التذكيرُ بضرورة الألفة بين المؤمنين بشكل عام، وبين العاملين بخدمة هذا الدين بشكل خاص، لأن ديننا العظيم هو دين الأخوة والمحبة، جاء ليجمع الشمل، يُؤَلِّفُ ولا يفرِّق، ويُوَحِّدُ ولا يُمَزِّق (٤) .

الفصل الأول

دينُنا دينُ الأُلفة والتعاون

يتألف هذا الفصل من نقطتين:

النقطة الأولى : المؤمنون المتقربون إلى الله تعالى شأنهم الألفة والمودة

تعلمنا من ديننا الحنيف أنه لا يتحقق إيمان المؤمنين إلا بمحبة بعضهم بعضاً، قال ﷺ ((**لا تَدْخُلُونَ الْجَنّةَ حَتّى تُؤْمِنُوا، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتّى تَحَابّوا**)) [مسلم / ٥٤] .

وعرفنا أنَّ أهم ما يرضاه الشيطان أن يحصل بين المؤمنين الشحناء والفتنة والبغضاء، قال ﷺ: ((**إِنّ الشّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ. وَلَكِنْ فِي التّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**)) [مسلم / ٢٨١٢] .

---

(٤) إذا اتسع هذا الدين لتشريعات تضمن حسن التعامل مع أناس غير مسلمين يقيمون في بلاد المسلمين ولو كانوا من اليهود فإنه أكثر اتساعاً في هذا الجانب لحسن التعامل فيما بين المسلمين .

ومن ذلك ما يتعلق بطعام أهل الكتاب والزواج منهم، قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ [المائدة / ٥] .

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ أخذ ومعه أصحابه ماءً من مشركة وأهداها تمراً وغيره من الطعام قبل أن تسلم مع قومها [البخاري / ٣٣٧ومسلم / ٦٨٢] .

كما ثبت أن النبي ﷺ عاد مريضاً من أطفال اليهود كانت قد غُرست في قلبه ونفسِه محبةُ النبي ﷺ بسبب ملاطفة النبي ﷺ له وحسن معاملته له [البخاري / ١٢٩٠] .

وقال أيضاً ((**يَبْعَثُ الشّيْطَانُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النّاسَ. فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَة**)) **[مسلم / ٢٨١٣]** .

وشأنُ أهل العافية والسلامة من المؤمنين الألفةُ والمودة، وهذا شأن الذين تَرَبَّوْا على يد النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ **لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ **[الأنفال / ٦٣]** .

وقد وصفهم النبي ﷺ بقوله: ((**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسّهَرِ وَالْحُمّى**)) .

[البخاري / ٥٦٦٥ مسلم / ٢٥٨٦]

وإذا فقدت الألفة فلا يحصل التعاون الذي كلف الله به المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ **[المائدة/ ٢]** .

يتأكد على المشتغلين بالدعوة التحقق بالألفة

وإن المشتغلين بالدعوةِ والعلمِ يتأكد عليهم التَّحَقُّقُ بهذه الألفة والمحبة أكثرَ من غيرهم وذلك لما يُبْنَى على مواقفهم وأعمالهم من آثار ترتبط بعامة المسلمين وأجيالهم وثقافتهم .

هذا وإنَّ الواقع الذي نعيشه يملي علينا أهمية هذا الجانب، الذي تجرعت الأمة بالبعد عنه ألوانَ وآلامَ الفُرْقَة والتنازع .

وإذا كانت الفُرقة والتنازع في الأمة شراً مهما كانت أسبابه فإن أعظم أنواعه شراً هو أن يتخذ هذا التفرق صِبغةً دينيةً في أمة هَيَّأَ اللّهُ تعالى لها من أسباب الألفة والوحدة ما لا يوجد في أمة من الأمم، وفيها كتاب الله الخالد الذي أنزل الله فيه: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ**

إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران ١٠٣ – ١٠٥] .

ومن المفيد أن يتذكر كلٌ منا أن كل عمل يؤدي إلى الحال الصالح والعمل الصالح مرتبطاً بالألفة والأخوة يكون تقرباً إلى الله تعالى وخدمة لهذه الأمة .

وما كان بخلاف ذلك مما يؤدي إلى الفرقة والتنازع يكون بعداً عن الله تعالى ويكون أيضاً خدمة لأعداء هذه الأمة، ويكون صاحبه من جنود شياطين الإنس والجن .

النقطة الثانية : العوامل الموصلة إلى الألفة

ومما يساعد على الألفة بين المؤمنين والعاملين في خدمة دين الله تعالى عوامل متعددة منها :

العامل الأول: طلب العلم الشرعي بمنهج الموفقين الصالحين

أُذَكِّرُ هنا بأمورٍ ضرورية لمن أراد تحصيل العلم النافع .

منها أن تكون الخطوةُ الأولى في ذلك أن يجعل أولَ مقاصده من طلب العلم أنْ يُكَوِّنَ نفسَه تكويناً ويَبْنِيَهَا بناءً يُرضي اللهَ تعالى، بناءً إيمانياً وأخلاقياً على أسس التقوى، التي يغلبُ صاحبَها المشفقَ على نفسه خشيةُ الله تعالى وخوفُ سوء الحساب.

وهذا ضروري لأنه بِطَلَبِه للعلم دخل باباً يَحُفُّه – واللهِ – كثيرٌ من المخاطر، ومن عظيم خطر هذا الباب المسؤوليةُ من حيث إنه متكلمٌ ومعبرٌ عن دين الله سبحانه وتعالى.

ومما أُذَكِّرُ به طالبَ العلم أن يُقبل على التعلم بخطوات مرحلية ذات برمجة وهدف صحيح واضح، يوصله إلى الهدف النبيل الذي وضعه أمامه، وهو العلم النافع الذي يعينه على التقوى وصلاح الأحوال والأعمال، منطلقاً إلى هدف أوسع هو وصوله إلى مراتب الراسخين في العلم، من وُرَّاث رسول الله ﷺ الذين كلما ازدادوا علماً ازدادوا لله خشية، يدعون إلى الله على بصيرة، قدوةً للمتقين، وإرشاداً للضائعين، ينفون

عن العلم الشرعي وعن دين الله تعالى تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وهذه الأهداف النبيلة العظيمة لا تتحقق إلا إذا سلم من العقبات والعوامل التي تحول بين طالب العلم وبينها .

ومنها أن يكون بعيداً عن الضغوط المندفعة باتجاهه ضمن أهدافٍ غيرِ هدفه، تبعده عن السلوك الذي يوصله إلى غايته .

وأن يكون متوازناً ثابتاً، يزن ما يبلغه من الأقاويل التي يسمعها فيحاكمها بميزان العلم والمعرفة، وسُلَّمِ الأوْلويات، دون أن تبهره الشعارات أو الصرخات، ولا يتأرجح مع الكثرة أو الغلبة، ويلتجئ إلى مولاه طالباً منه الرشاد.

ومنها أن يحسن إدارة وقته وطاقته، وأن لا يغلبه ما يثيره كل شخص وكل كاتب ومتكلم، فيترك ما بدأ به وخَطَّطَ له من التعلم .

فالهمم والطاقات والأوقات عندما تُوَجَّهُ ذلك التوجيهَ الطيبَ – بعيداً عَمَّا تمليه المؤثرات التي تحف بالطالب الشاب المبتدئ في ليله ونهاره، وتشغله وتأكل وقته – لها أكبر الأثر في تحصيل العلم النافع المبارك، المنتج للالتزام والتطبيق والأخلاق الفاضلة، وتكون وسيلة إلى الوصول إلى الرسوخ في العلم .

ومنها أن يَحْذَرَ طَلَبَةُ العلم أن يُشْغَلُوا وهم في بداية طلبهم للعلم بمسائل النِّزاع والخلاف، وهم ما زالوا في مرحلة التكوين .

وما أكثر من يدفعهم لهذه الساحات بدلاً من توجيههم للبناء العلمي المحايد الأصيل، وهذه والله مسؤولية كبيرة خطيرة تتعلق بمصلحة الأجيال الجديدة، التي من الضروري أن تعيش بعيداً عن مسائل النِّزاع والخلاف قبل وصولها إلى جانب واسع من العلم تستطيع أن تميز به بين الغلط والصواب، وبين الحق والباطل .

ومن أهم ما أُذَكِّر به طالب العلم أن يكون طلبه للعلم على أيدي العلماء الذين تلقوا العلم عن العلماء، فالصحفي لا يكون محصلاً للعلم، وتكثر أخطاؤه.

وقد ذكر الشاطبي من علامات العالم المتحقق بالعلم أن يكون ممن رباه الشيوخ فى ذلك العلم، وذكر أن هذا كان حالَ العلماء الراسخين كالأئمة الأربعة وأشباههم، وقال أيضاً:

وحسبك من صحة هذه القاعدة أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك، وقلما وُجِدَتْ فِرْقَةٌ زائغةٌ ولا أحدٌ مخالفٌ للسنة إلا وهو مفارق لهذا الوصف [الموافقات ١/ ٩٣ وما بعدها] .

وستأتي معالم أُخرى لمنهج الموفقين من طلاب العلم في فصل العقيدة والإيمان، وفي فصل الاجتهاد والتقليد إن شاء الله تعالى.

العامل الثاني : التَّأنِّي والتثبتُ عند التكلم في الأمور الدينية

يجب على المسلم عندما يتكلم في أمور الدين أن يتأنى ويتثبت، وأن يرجع إلى أهل العلم ليبحث معهم في الأمور التي لا يتيقن أنه فيها على الصواب، فقد يمر على طالب العلم كثيرٌ من الأمور التي لا يفهمها، أو يفهمها خطأً، فلا ينبغي له أن يتكلم بشيء إلا بعد السؤال والتعلم .

فالدين دين الله تعالى، وعندما يتكلم الإنسان فيه فكأنه يخبر عن الله .

واتباعُ ما ليس علماً أمرٌ سيِّءٌ وخطيرٌ في كل أمر، لكنه أكثر سوءاً وخطراً عندما يرتبط بأمور الدين، قال تعالى: ﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء / ٣٦] .

وعلى المسلم أن يدرك حرمةَ الكلام في الدين دون علم، كما يدرك حرمة الفواحش، وأن يتعظ بقوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف ٣٣] .

وعليه أن يعلم أن القول في دين الله تعالى بلا علمٍ وبصيرةٍ سَيْرٌ في ركاب الشيطان، قال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة ١٦٨، ١٦٩] .

ولذلك كان كثير من الكرام الذين أسعدهم الله تعالى بتربية رسول الله ﷺ لهم يتأنَّوْن ولا يتسرعون في الكلام في الدين .

فعن البراء بن عازب ﷺ قال: **لقد رأيتُ ثلاثمائة من أهل بدر، ما منهم مِنْ أحدٍ إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبُه الفتوى** [الفقيه والمتفقه ١٦٥/٢ للخطيب البغدادي] .

وقد وصفهم التابعي الجليل عبد الرحمن بن أبي ليلى بقوله: « **لقد أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ وما منهم من أحد يحدث بحديث إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه الحديث، ولا يُسأل عن فتيا إلا ودَّ أن أخاه كفاه الفتيا** » [سنن الدارمي ٦٥/١ وطبقات ابن سعد ٦/ ١١٠] .

وعن القاسم بن محمد رحمه الله قال: **لأن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعلم ما افترض الله عليه خيرٌ له من أن يقول ما لا يعلم** [طبقات ابن سعد ٥/ ١٨٨] .

وقال يحيى بن سعيد لِلْقاسم بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: يا أبا مُحَمَّدٍ! إنه قبيحٌ على مثلك عظيمٌ أن تُسْأَلَ عن شيءٍ من أمر هذا الدين، فلا يوجدَ عِنْدَكَ مِنْهُ عِلْمٌ وَلا فَرَجٌ، أو عِلْمٌ وَلا مَخْرَجٌ، فقال لَهُ القاسمُ: وَعَمَّ ذاكَ؟ قَالَ: لأنكَ ابْنُ إمامي هدى ابن أبي بكر وعمر، فقال له القاسمُ: **أقبحُ من ذاك عِنْدَ مَنْ عَقَلَ عن الله، أن أقول بغير علمٍ أو آخذ عن غير ثقة** [مقدمة مسلم ص ١٢] .

إن خطر الكلام في الدين شديد ولو كان متعلقاً بوضوء رجل واحد .

وعندما يتعلق باثنين يكون أكثرَ خطراً، وأعظمَ مسؤوليةً، **ولكنه يكون أشد خطراً عندما يتعلق بأمور المسلمين العامة.**

لقد ثقلت علينا اليوم كلمة (**لا أدري**) وكانت سهلة على كبار أهل العلم في القرون الأولى، شائعةً فيهم مع سعة علومهم، وعظمة جهودهم، وتحقق أهليتهم، تراهم يفاجئون المستفتين والسائلين بقول: (**لا أدري**) .

فهذا التابعي الجليل طاووس بن كيسان الفقيه القدوة عالم اليمن يقول عنه حنظلة بن أبي سفيان: ما رأيت عالماً قط يقول: (**لا أدري**) أكثر من طاووس .

[سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٣]

وهذا الإمام مالك رحمه الله تعالى يعلمنا هذا الأدب العظيم، وينقله عن شيوخه فيقول: جُنَّةُ العالم (**لا أدري**) فإذا أغفلها أصيبت مَقاتِلُهُ، وينقل عن شيخه عبد الله بن يزيد بن هرمز أنه قال: ينبغي للعالم أن يُوَرِّثَ جلساءَه قولَ (**لا أدري**) حتى يكون ذلك أصلاً يفزعون إليه **[سير أعلام النبلاء ٨ / ٧٧]** .

ويسبقنا الإمام مالك إلى العمل بهذا فيسأَلُ عن ثمان وأربعين مسألةً يجيب في اثنتين وثلاثين منها بـ (**لا أدري**) **[سير أعلام النبلاء ٨ / ٧٧]** .

ويقول خالد بن خداش: قدمت على مالك بأربعين مسألة فما أجابني منها إلا في خمس مسائل **[سير أعلام النبلاء ٨ / ٧٧]** .

غابت اليوم هذه الكلمة، وندر أن يسمع الإنسان من طالب علم كلمةَ (**لا أدري**) أو نحوَها، وغاب معها بذل الجهد الكافي في طلب العلم، وغابت الأهلية الكافية، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

العامل الثالث: مراقبة الله تعالى وخشيته والخوف من سوء الحساب

إن طالب العلم معرض لموقف خطير بين يدي الله تعالى، من حيث مسؤوليتُه عن أقواله وكلامه في الدين، ومن حيث عملُه بما يتعلم .

وإذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام يُسألون أمام الله تعالى فغيرهم أولى أن يُسألوا، قال تعالى: ﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ **[الأعراف ٦]** .

كما أنَّ طالب العلم المتكلمَ في دين الله تعالى عليه أن يدرك خطر الوقوع فيما نهى الله عنه أكثرَ من غيره، وأنه إذا لم يورثه العلمُ خشيةَ الله تعالى، فلا ينتفع بعلمه، ولا يكون من أولي الألباب، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ* الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ** ﴾ [الرعد ١٩– ٢١] .

والخوف من الله تعالى من المقامات العلية، وهو من لوازم الإيمان، قال الله تعالى ﴿ **وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران / ١٧٥] وقد وصف الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ** ﴾ [الأحزاب/ ٣٩] .

وأكمل الناس في عامَّة الفضائل نبيُّنا محمد ﷺ ، ولذلك كان أعرفَ الناس بالله سبحانه وتعالى وأكثرَهم له خشية، قال ﷺ : ((**فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**)) [البخاري/ ٥٧٥٠ ومسلم / ٢٣٥٦] وقال ﷺ : ((**أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ**)) [مسلم / ١١٠٨] .

وكلما كان العبد أقرب إلى ربه كان أشد له خشية ممن دونه، وأقربُ الناس إلى الله تعالى بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ورثتهم من العلماء الحقيقيين الربانيين الذين ورثوا مع الرسوخ في العلم صلاحَ ظواهرهم وبواطنهم .

قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر / ٢٨] .

ومن علامات هذه الخشية أن صاحبها يغلبه البكاء في كثير من أوقاته، وخصوصاً عندما يسمع مواعظ القرآن الكريم وغيرها من المواعظ .

وإنَّ سيرةَ رسول الله ﷺ، وحياةَ أصحابه ﷺ – خصوصاً الخلفاء الراشدون – مليئةٌ بذلك (٥) .

---

(٥) من الحكمة أنه يجب التنبه للأمراض الخطيرة قبل فوات الأوان .

ومن الواضح لمن عرف أحوال الصحابة ﷺ وأحوال التابعين أنَّه يدرك ما غلب علينا مرض الأمن من عذاب الله وقلة الخشية من سوء الحساب، مع غفلتنا عن هذا المرض وغفلتنا عن خطورته .

وقد رأيت من المفيد أن أنقل من أحوال النبي ﷺ وأصحابه ﷺ وأحوال التابعين وأتباعهم من أهل العلم والفضل ما أرجو أن يجعله الله تعالى تذكرة في هذا الأمر لي ولمن أرجو لهم الخير ممن يطالع هذا الكتاب .

وقبل هذا يحق لنا أن نتساءل، لماذا كانت خشيتهم لله تعالى عظيمة وبكاؤهم كثيراً ويكون نصيبنا من ذلك نادراً إذا لم يكن مفقوداً؟ والجواب البديهي هو صلاح أحوال قلوبهم بعمارتها بأنوار القرآن الإيمانية التي هي من أعظم العلم النافع التي تتجاوز عملَ العقول إلى القلوب فتعمل فيها عملها، مع أمراض قلوبنا التي أغفلنا نصيبها من العلم منشغلين بقليل من عمل العقول وكثير من عمل الألسنة إلى أمراض أخرى نسأل الله تعالى أن يبصرنا بها وأن يوفقنا إلى طريق العافية منها، فاقرأْ يا أخي معي هذه الأخبار ملتجئاً إلى الله تعالى رغبة ورهبة مستغفراً .

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال قال لي النبي ﷺ: اقرأ عليَّ، قلت يا رسول الله آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ **[النساء/٤١]** قال: حسبك الآن، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان **[البخاري / ٤٧٦٣]** .

وأبو بكر ﷺ كان بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن في جميع مراحل حياته منذ أن كان بمكة قبل الهجرة وبعد الهجرة في المدينة .

فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ أبا بَكر ﷺ عندما كان مهاجِراً قِبَلَ الحبشة وبَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لقيه ابن الدَّغِنَةِ وهو سيِّد القارة فقال: إنَّ مثلك لا يَخْرُجُ ولا يُخْرَجُ فإنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق وأنا لك جار فارجع فاعبد ربك ببلادك .

وأنَّ قريشاً قبلت جوار ابن الدَّغِنَةِ وآمَنُوا أبا بكر، وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يَسْتَعْلِنْ به فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا .

وذكرت رضي الله عنها أنه بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وبرز فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن وأنه كان بكاءً لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال قد علمت الذي عقدت لك

عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترد إلي ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخْفِرْتُ في رجل عقدت له . قال أبو بكر إني أرد لك جوارك وأرضى جوار الله .

[البخاري / ٢١٧٥]

وعن عائشة أم المؤمنين: أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: ((**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ**)) قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يُسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل، فقال: ((**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**)) **[البخاري / ٦٨٧٣]** .

وروى البخاري أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أتي بطعام، وكان صائما، فقال: قتل مصعب بن عمير، وهو خير مني، كفن في بردة: إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقتل حمزة، وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام **[البخاري / ١٢١٦]** .

وعن عطاء قال: كنت أصنع الكحل لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وكان يطفئ السراج بالليل ثم يبكي حتى رسعت عيناه . (**رَسَّعَ: فسَد مُوقُ عينه**) .

[سير أعلام النبلاء ٣ / ٩١]

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه أنه تلا ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ** ﴾ فجعل ابن عمر رضي الله عنهما يبكي حتى لثقت لحيته وجيبه من دموعه فأراد رجل أن يقول لأَبِي أقصر فقد آذيت الشيخ **[سير أعلام النبلاء ٣ / ٢١٤]** [لثقت لحيته ابتلت] .

وروى عثمان بن واقد عن نافع كان ابن عمر إذا قرأ : ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ **[الحديد/١٦]** بكى حتى يغلبه البكاء **[سير أعلام النبلاء ٣ / ٢١٤]** .

وعن فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز قالت: **يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصياما من عمر ابن عبد العزيز وما رأيت أحدا أشد فرقا من ربه منه كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده ثم يرفع يديه فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه ثم يتنبه فلا يزال يدعو رافعا يديه يبكي حتى تغلبه عينه يفعل ذلك ليله أجمع .** [سير أعلام النبلاء ٥ / ١٣٧] .

وعن مكحول قال: لو حلفت لصدقت، ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز **[سير أعلام النبلاء ٥ / ١٣٧]** .

وعن الإمام مالك قال: كان محمد بن المنكدر لا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا كان يبكي **[سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٥٥]** .

وعن محمد بن صالح التمار قال كان صفوان بن سُليم يأتي البقيع في الأيام فيمر بي فاتبعته ذات يوم وقلتُ لأنظرن ما يصنع، فقنع رأسه وجلس إلى قبر منها فلم يزل يبكي حتى رحمته، وظننت أنه قبر بعض أهله .

ومَرَّ بي مرة أخرى فاتبعته فقعد إلى جنب قبرٍ غيره، ففعل مثل ذلك فذكرت ذلك لمحمد بن المنكدر وقلت إنما ظننت أنه قبر بعض أهله، فقال محمد: كلهُم أهله وإخوته، إنما هو رجل يحرك قلبه بذكر الأموات، كلما عرضت له قسوة، قال ثم جعل محمد يمر بي فيأتي البقيع فسلمت عليه ذات يوم فقال: أما نفعك موعظة صفوان؟ فظننت أنه انتفع بما ألقيت إليه منها . **[سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٦٦و ٣٦٧]**

وكان التابعي الحافظ الثبت القدوة منصور السلمي أبو عتاب رحمه الله تعالى يبكي، فتقول له أمه يا بني قتلت قتيلاً فيقول أنا أعلم بما صنعت بنفسي فإذا كان الصبح كحل عينيه ودهن رأسه وبرق شفتيه وخرج إلى الناس **[سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٠٦]** .

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: بات سفيان عندي، فجعل يبكي، فقيل له، فقال: لَذُنوبي عندي أهونُ من ذا، ورفع شيئاً من الأرض، إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت .
[سير أعلام النبلاء ٧ / ٢٥٨] .

ومن أخبار الإمام القدوة المحدث الحجة إسماعيل بن قتيبة ابن عبد الرحمن أبو يعقوب السلمي النيسابوري، أن الإنسان إذا رآه كان يذكر السلف لسمته وزهده وورعه، وكان يخرج للطلبة فيقعد على حصباء النهر والكتاب بيده فيحدثهم وهو يبكي وإذا قال حدثنا يحي بن يحيي يقول رحم الله أبا زكريا، قال الحاكم قرأ إسماعيل على ابن أبي شيبة المصنفات كلها وهي أجل رواية عندنا لابن أبي شيبة **[سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٤٤]** .

وذكر ابن الجوزي شيخه الشيخ أبا البركات عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي فقال: كنت أقرأ عليه وهو يبكي فاستفدت ببكائه أكثر من استفادتي بروايته وانتفعت به ما لم أنتفع بغيره **[سير أعلام النبلاء ٢٠ / ١٣٦]** .

وأختمُ الحديث عن هذه الأحوال الصالحة بذكر بعض ما ذكره الإمام النووي في كتابه: (**التبيان في آداب حملة القرآن**)

عن أبي ذر ﷺ قال قام النبي ﷺ بآية يرددها حتى أصبح، والآية ﴿ **إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ** ... ﴾ الآية **[/ المائدة / ١١٨]** .

العامل الرابع: المحافظة على جانب الأخوة والمحبة في الله تعالى

ولهذه الأخوة حقوق منها ما يلي:

١- المحافظة على صلاح ذات البين: فالعداوة والبغضاء في القلوب يفسدان القلوب ويُذْهِبان حلاوةَ الإيمان، ويُبْعِدان الإنسان عن دين الله تعالى .

عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنّ النبيّ ﷺ قال: ((**إِيّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ**)) .

[الترمذي وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ،قال: ومعنى قوله: وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ إِنَمّا يَعْنِي الْعَدَاوَةَ وَالبَغْضاءَ. وَقَوْلُهُ الْحَالِقَةُ يقول:إِنّهَا تَحْلِقُ الدّينَ] .

وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كرر هذه الآية حتى أصبح ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ** .... ﴾ الآية **[الجاثية/٢١] .**

وعن عبادة بن حمزة قال: دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ : ﴿ **فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ** ﴾ **[الطور/٢٧]** فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو فطال عليَّ ذلك فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو .

وردد ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ **رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ **[طه/١١٤]** وردد سعيد بن جبير ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ** ﴾ **[البقرة/٢٨١]** وردد ﴿ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ** ﴾ **[غافر/٧٠، ٧١]** وردد أيضاً ﴿ **مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ** ﴾ **[الإنفطار/٦]** وكان الضحاك إذا تلا قوله تعالى: ﴿ **لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ** ﴾ **[الزمر/١٦]** رددها إلى السحر .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف فبكى حتى سالت دموعه، وفي رواية أنه كان في صلاة العشاء، فتدل على تكرر بكائه في الصلاة، وفي رواية أنه بكى حتى سمعوا بكاءه .

وعن أبي صالح قال: قدم ناس من أهل اليمن على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فجعلوا يقرؤون القرآن ويبكون فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: هكذا كنا .

وعن هشام قال: ربما سمعت بكاء محمد بن سيرين في الليل وهو في الصلاة .

(التبيان: ٤٣ – ٤٤) .

عن أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قال قالَ رَسُولُ الله ﷺ ((**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ**)) [الترمذي /٢٦٢٧ وأبو دواد/ ٤٩١٩] .

٢- احترام المسلم لأخيه : عن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**ليس من أمتي من لم يُجِلَّ كبيرَنا ويرحمْ صغيرَنا ويعرفْ لِعالِمِنا حقَّه**)) .

[رواه أحمد والطبراني وإسناده حسن.]

ومن احتقر أخاه فقد حصل على جانب عظيم من الشر، بسبب احتقاره لأخيه، وقد حذَّر من ذلك رسول الله ﷺ فقال: ((**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**)) [مسلم / ٢٥٦٤] .

وقد يحتقره بسبب آرائه أو اجتهاداته أو مواقفه، وليس شيء من ذلك عذراً عند الله تبارك تعالى.

٣- حسن الظن بأخيه وخصوصاً فيما يتعلق بقلب أخيه ونفسه، فشؤون القلوب قضية اختص الله بها نفسه، ونهانا عن سوء الظنِّ، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾ [الحجرات:/ ١٢] .

وإن قلوب الناس ساحة ليس لنا فيها عمل بالحكم على مافيها، ولا يحق لنا ولا نملك أن نتكلم عما فيها من المقاصد والنيات، وقد نهانا الإسلام عن ذلك، ومن اللائق بالمسلم أن يأخذ درساً عظيماً من الحديث التالي :

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحْنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : ((**أَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاّ الله وَقَتَلْتَهُ؟**)) قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: ((**أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتّى تَعْلَمَ: أقالها أم لا**))، فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ [مسلم / ٩٦] .

فعلى طالب العلم أن يدرب نفسه على إساءة الظن بنفسه، وحسن الظن بالآخرين، ولا ينبغي أن يغلب علينا الحالُ السيِّئُ من عكس القضية فنحسن الظن بأنفسنا ونسيء الظن بالآخرين.

والواقع الحالي يشهد أن تناول النيات والخوض فيها مفسدٌ لأي نقد أو نصح أو حوار .

٤- إنصاف الآخرين

ويتأكد هذا الأمر إذا وجد المؤمن في قلبه شيئاً من نفور أو تغير على بعض إخوانه الموافقين له أو المخالفين .

فإنَّ من الظلم النظرَ للآخرين من خلال زلات محدودة، والتغافلَ عن محاسنهم، فالتعامل مع الأخوة يجب أن يكون على أساس أنهم بشر يصيبون ويخطئون، فالنفس البشرية تتعرض للامتحانات، ولها ظروف وملابسات .

كما أنَّه من الظلم ومن البعد عن الإنصاف أن يندفع المسلم إلى تتبعِ عيوب إخوانه، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك تحذيراً شديداً، فعن ابنِ عمر رضي الله عنهما قال: « **صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المنبَرَ فنادى بصوتٍ رفيعٍ قال: يا معشرَ من أسلَمَ بلسانهِ ولم يُفضِ الإيمانُ إلى قلبهِ لا تؤذوا المسلمينَ ولا تُعيِّروهُم ولا تتَّبعوا عوراتِهِم فإنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عورةَ أخيه المسلم تَتَبَّعَ الله عورتَه ومن تَتَبَّعَ الله عورته يفضَحْهُ ولو في جوف رَحْلِهِ** » [الترمذي / ١٠١ ،الإمام أحمد وأبو داود عن أبي برزة الأسلمي / ٤٨٨٠ وأبو يعلى عن البراء والطبراني عن ابن عباس] .. وفي رواية ابن عباس « **خطب رسول الله ﷺ خطبة أسمع العواتق في خدورهن فقال يا معشر من أسلم بلسانه** ..... الخ »

ثم علينا أيضاً أن نفصل بين مناقشة المسائل المناقشة العلمية وبين مخاصمة الأشخاص الذين قد نخالفهم في تلك المسائل، فليس من حقنا ولا من مصلحتنا النيلُ ممن يخالفنا، سواء أخطؤوا أم أصابوا، فمهمتنا في مناقشة المسائل لا تتجاوز المسألة والرأي والفكرة والدليل .

من الظلم النظر للآخرين من خلال زلاتهم

لا يلزم من مناقشة الآراء مخاصمة أهلها

فالاهتمام بالذوات والتمحور حول الأشخاص و قصد إسقاط الناس كلُّ ذلك من أمراض المجتمع المبتعد عن مراتب المتقين التي ربى عليها رسول الله ﷺ خيار هذه الأمة، ومن لم يجد في نفسه العافية من هذه الأمراض فاللائق به الاهتمام والانشغال بإصلاح نفسه قبل الانشغال بأخطاء غيره .

٥- أن يراعَى حسنُ الخلق وحسنُ الأسلوب

عندما يحاور المسلم أخاه أو ينصحه عليه الالتزام بالأخلاق التي جاء بها الإسلام بشكل عام، ويركز على الرفق بشكل خاص، لأنه من أهم العوامل التي تساعد الإنسان على قبول الحق عندما يتبين له، والله تعالى قال لرسوليه موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ [طه / ٤٣ – ٤٤].

وإذا ما حصل جانب من الجدال من أجل تبيين الحق فعليه أن يكون جداله لأخيه بالتي هي أحسن، وهذا ما أوصى به الله تعالى نبيه محمداً ﷺ فقال: ﴿ **ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل/ ١٢٥] .

وإذا ما رأيت الخطأ في رأيٍ أو قولٍ أو عملٍ أخيك فتذكر أنك مثلُه معرضٌ للخطأ، فكلٌّ منَّا يخطئ، وإن كثيراً من الإخوة المتلبسين ببعض الأخطاء طيبون، ولا يحتاجون من أجل قبول الصواب والتخلِّي عن أخطائهم إلا إلى وجود من يعرض عليهم الأمور بهدوء وحكمة ورفق .

وفي كثير من الأحيان لا يجدون إلا من يسرد أخطاءهم ويهاجمهم بها، وهذا يؤدي في الغالب إلى التشنجِ، والتعصبِ لتلك الأخطاء، وإلى النفور من الآراء المخالفة لما هم عليه من المألوفات المخالفة للحق، ولنتذكر قوله ﷺ : « **إِنّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ شَانَهُ** » [مسلم/ ٢٥٩٤] .

٦- التَّبَيُّنُ والتثبت من الأخبار والإشاعات

يجب الحذر من مرض خطير تسرب إلى مجتمعاتنا، وهو الانشغالُ بإشاعة الأخبار السيئة، وتضخيمُ أخطاء الناس، والحرصُ على تصيدها والتفكهُ بعرضها في المجالس .

وهذا يُشيع الاضطرابَ في المجتمع وفي النفوس، ويسبب العداوة وإساءةَ الظنِّ، و يكون من باب إشاعة السوء ونشر الفتنة في المجتمع، وشَغْلِ الناس بالسلبيات، وهذا قد يؤدي إلى الشعورِ بالإحباط واليأس عند كثير من الناس، وهو يؤدي أيضاً إلى تهوين نقل السيئات بين الناس، وربما قاد ذلك إلى تهوين ارتكابها في نفوسهم .

يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النور/ ١٩] .

يقول ابن كثير رحمه الله: وهذا تأديب لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ فقام بذهنه منه شيء وتكلم به اهـ .

وقال ﷺ : ((**كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**)) [**مسلم في المقدمة**] .

وكثيراً ما تنتقل الإشاعات بأسلوب مضلل وهو: (**حدثني من أثق به**) وفي الواقع يكون هذا الموثوق به من الكاذبين، أو من الغالطين، أو الفاسقين الذين ينقلون ما لا يجوز نقله، فيقعون في الغيبة أو البهتان .

٧- الحذر من الوقوع في الغيبة والبهتان في حق أخيه :

وشر الغيبة كبير، ولذلك لم يَتْرُكْ رسول الله ﷺ تفسيرَها لنا، بل فسرها هو بنفسه فقال: ((**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِن كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ، فَقَدْ بَهَتّهُ**)) [**مسلم/ ٢٥٨٩**] .

والبهتان الذي حذر منه النبي ﷺ في هذا الحديث يقع كثيراً في حياة المختلفين المتخاصمين بصور مختلفة .

ومن أقبح هذا البهتان الرمي بالكفر الذي حذر منه النبي ﷺ أشد التحذير في أحاديث كثيرة سيأتي بعضها آخر الفصل الثاني منهج بناء الإيمان إن شاء الله تعالى .

العامل الخامس: الاشتغال بأبواب الخير وترك الاهتمامات الجزئية

إن من حكمة الله أن جعل الناس مختلفين في الميول والرغبات والاهتمامات، وفَطَرَهُمْ على التنوع، مما يساعد على توزيع المهمات التي أمرنا بها الله تعالى .

والجوانب التي قصرنا فيها كثيرة، وكثيرٌ مما تخلفنا عن القيام به يعتبر من الفرائض الكفائية الضرورية، وخاصة مع تطور وسائل العلم والإعلام التي علينا أن نسخرها فيما يقدم الصلاح والخير .

وأبواب الخير التي نخدم فيها ديننا، ونتقرب بها إلى ربنا سبحانه وتعالى كثيرة، تتسع لجهود جميع الطيبين .

ومن أبواب الخسران أن تضيق هذه الأبواب في نظر بعض الإخوة، حتى تكاد تنحصر في نظرهم في بعض ما يشتغلون فيه، أو بعض ما يهتمون به في الجانب النظري، وإن لم يكن لهم شيء من الجوانب العملية .

ومن أسباب الشر والخسران المنتشرة أن يتهكم أصحاب كل اهتمام بالاهتمامات الأخرى، ويقللوا من أهمية الأعمال الذي يقوم بها غيرهم في مختلف جوانب الخير، كأنهم يريدون أن تُبْذَلَ كلُّ الجهود بالزاوية التي بها يعملون.

والأدهى من ذلك أنه نتج عن ذلك خلافات شَغَلَت الناس عن العمل الصالح بانتقادات الآخرين، وصارت هذه الانتقاداتُ والانشغالُ بها في نظر الكثير القُربةَ الأساسيةَ التي يتوهمون أنها توصلهم إلى رضوان الله تعالى .

وصار من أهم ما يحرص عليه أصحاب هذه الاهتمامات تعميمها على كل العاملين، وهذا من أسباب تضييع الجهود وبذلها فيما لا خير فيه .

وقد ضاعت جهود كثير من الطيبين عندما شُغلوا بهذه الاختلافات التي لا يرضاها الله تعالى ولا رسوله ﷺ ولا صالحُ المؤمنين، والتي يُسَرُّ بها الشيطان وأعداء هذه الأمة التي أكرمها الله تعالى بدينه العظيم .

كما ضاعت أيضاً كثير من الجهود في التمحور حول الجزئيات والفرعيات.

خطورة الكلمة والمسؤولية عنها وعن آثارها

وإنه من الأهمية بمكانٍ عظيمٍ أن ننتبه نحن وجميع المتكلمين في الدين والكاتبين فيه إلى خطر الكلمة، وعظيم المسؤولية عنها، وخصوصاً مَن امتُحِنوا بانتشار أقوالهم، وقبول آرائهم، حيث إنهم مسؤولون أمام الله تعالى عن الناس الذين يتأثرون بهم، سواء قلُّوا أم كثروا .

نحن في عصر كثر الكلام فيه عن دين الله تعالى بشكل لم يسبق له مثيل، وانتشرت الكلمة بسبب وسائل الإعلام الحديثة انتشاراً لم يكن يخطر على البال، وأصبح كل إنسان عالمٍ أو جاهلٍ يستطيع أن يكتب كتاباً يطبعه وينشره، وبسبب تضييع الأمانة في هذا الزمن الذي وُسِّد الأمر فيه إلى غير أهله تَسَلَّقَ كثير من الجاهلين المنابر، وتَوَلَّوْا كثيراً من الوظائف الدينية التي مهمتها الإرشاد والتعليم، فصار كلُّ إنسان في زماننا يستطيع أن يتكلم ما يريد وينشر كلامه ويوصله إلى مئات الألوف من الناس .

إنَّ الكلمة لها أثر في عصر المتكلم بها وبعد عصره، وهو مسؤول عنها وعن

آثارها، وجميعُ آثارها في صحيفته، خيراً كانت تلك الآثار أو شراً، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ** ﴾ [يس/ ١٢] .

ولننظر إلى أبناء جيلنا الذي ملَّ من كثرة المبادئ والدعوات المختلفة، وزاد تعطشه إلى معرفة هذا الدين، فأقبل عليه يَدْرُسُه ويعمل به بهمة عالية، ونَهَمٍ في القراءة والبحث، ولا بد لأبناء هذا الجيل والأجيال التي تليه أن يتأثروا بما يسمعون وبما يقرؤون، وهذا يجعل المتحدث والكاتب يحمل مسؤولية أكبر أمام الله تعالى، وكم يسمع الناس ويقرؤون ما يُقَدَّمُ لهم من تلك الوجبات الارتجالية أو الانفعالية، التي يظهر فيها البعد عن التحقيق العلمي، وغلبة التأثر بمؤثرات البيئة وردود الأفعال .

ومسؤولية المتكلمين في الدين تكون أكبر عندما يخاطبون جيلاً في مراحل تكوينه الأولى، في زمن الشباب الذي تشتد فيه قوتهم على التحصيل والبناء، مع ضعف قدراتهم على التمييز بين الصواب والخطأ، ومع غلبة عواطفهم وانفعالاتهم على محاكمة الأمور بموازين وضوابط العلم والمعرفة .

وبالغفلة عن هذه المسؤولية فإنَّ كثيراً من الناس يقحمون من يتأثر بهم في برامجهم واهتماماتهم العشوائية، بدلاً من أن يشاركوا في بناء الجيل بناء مدروساً سليماً من كل المؤثرات والأهواء التي قد تضغط على هؤلاء الشباب، فتقيدهم بقيود تبعدهم عن رؤية الحق، وعن اتباعه .

ومع هذه النتائج الضارة ربما يظن المتسببون فيها أنَّهم يحسنون صنعاً، مع أنهم متعرضون للخسران المبين، ولا يمكنهم أن يسلموا من تحمل أوزار ما كانوا السبب في حصوله من تلك النتائج .

العامل السادس: التجرد والموضوعية وعدم التعصب

لا بد لنا في بداية هذه النقطة أن ننتبه إلى ما مر معنا في مقدمة هذا الكتاب أنَّه إذا نشأ المرء على أمر منتشرٍ في حياته أو بيئتِه وأَلِفَه فإنه في الغالب يميل إليه ولا يستغربه، ويستغرب أمراً آخر اعتاد عليه غيرُه .

وأنَّه إذا أحب أمراً فإنه لا يسهل عليه أن يدرك أنه باطل، وإذا كره أمراً فإنه لا يسهل عليه أن يدرك أنه حق، لأنَّ الحب والكراهية يُعميان أكثرَ الناس .

وأنَّه من الضروري لمن يريد معرفة الحق، أن يَصْدُق في الاستعانة بالله تعالى أن يُخَلِّصَهُ من غلبة سلطان العادة والهوى، وأن يحميه من التعصب لما يراه، فإنَّ من شأن التعصب أن يفسد النية ويجعل من الإنسان صاحب هوى، والهوى لا عذر عند الله تعالى لمن ضل عن الحق بسببه .

ولهذا كان من الضروري عندما نبحث في الأمور التي قد يختلف فيها الناس أن يكون كلٌّ منَّا متجرداً، بعيداً عن التعصب، يبحث في الأمور بموضوعية، بحثاً علمياً، ملتجئاً إلى الله تعالى، طالباً منه التوفيق للحق .

الموفقون يقبلون الحق عندما يرونه مع مخالفيهم

والموفقون أهواؤُهم تتبع الحق، ولا يصعب عليهم قبوله عندما يرونه مع مخالفيهم، لأن الله تعالى قد عافاهم من غلبة الهوى، فكانت أهواؤهم تابعة للحق أينما وجدوه، ومن ظهر له الحق في مسألة فرفضه ولم يقبله فقد عرَّض نفسه للهلاك، واتصف بصفة التعصب والكبر الذي حذر منه النبي ﷺ بقوله: ((**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُ الْجَنّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنّ الرّجُلَ يُحِبّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنّ الله جَمِيلٌ يُحِبّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقّ وَغَمْطُ النّاسِ**)) . **[مسلم/٩١]**

فمن ظهر له الحق فرفضه ولم يقبله فهو متكبر متعصب للباطل .

ومن مظاهر التعصبِ المذموم:

التعصب للانتماءات الخاصة وما يبنَى على ذلك من تصنيفات للناس .

التعصبُ للمذهب، [٦] واعتبار الخروج عنه كأنه خروج عن الدين .

والتعصبُ للشيوخ: والثقة العمياء بهم، وإنكار وجود عيبٍ فيهم .

ومن أسباب التعصب للشيوخ:

– البعدُ عن معرفة أحوال الصحابة ﷺ والتابعين والأئمة وتلاميذهم مع شيوخهم وتلاميذهم .

– ومنها أنَّ بعض الذين يتصدون للتوجيه الديني يمارسون هيمنةً على تلاميذهم يسلبون فيها إرادتهم وتفكيرهم، ويمنعونهم من الاستفادة من أهل العلم لِيُسَلِّمَ لهم هؤلاء المساكينُ في جميع أفكارهم وأفعالهم وأحوالهم .

ونتج عن ذلك أن الرجال صاروا هم الموازينَ التي توزن بها الأمور، لا العلمَ والأدلةَ الشرعية، وبأحوال وأعمال الرجال صار يُمَيَّزُ الحق من الباطل، مع أنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ .

وهذا أحد الأسباب التي كان لها أثر كبير في التباس الحق بالباطل، وكثيراً ما حذر المصلحون والعلماء الراسخون من ذلك عندما كانوا يقولون: **اعرف الحق تعرفْ أهله، يُعْرَفُ الرجالُ بالحق، ولا يُعْرَفُ الحقُّ بالرجال .**

أهل الحق يُغَلِّبُون اتِّباع الحق على عواطف الحب والإجلال

فالعالم الحقيقي يُرَبِّي أتباعه وتلاميذه على الارتباط بأسس هذا الدين، والاستضاءة بأنوار العلم والمعرفة، ويرشدهم إلى الارتباط بما كان عليه السواد الأعظم من الراسخين في العلم، يحذر من الشذوذ، ويبين لهم أنه معرضٌ للصواب وللخطأ،

(٦) لا يعتبر تقليد المسلم مذهباً فقهياً من مذاهب الأئمة المعتبرين تعصباً ولا مخالفة لما كان عليه السلف الصالح كما يظهر في فصل التقليد والاجتهاد الآتي في هذا الكتاب .

وأن الصواب قد يكون مع غيره من أهل العلم، وأن ارتباطَهم به ارتباطُ أُخُوَّةٍ وتعاون ومحبة لوجه الله تعالى، لا ارتباط ولاء مطلق .

وتقديم اتباع الحق على عواطف الحب والوفاء والاحترام والإجلال فضيلةٌ عظيمة عامَّة في الصحابة ﷺ والتابعين والأئمة المجتهدين وتلاميذهم، – وهذا ظاهرٌ لطلاب العلم – ويكفينا في بيان هذا الأمر أن ننظر إلى أقوال تلاميذ الأئمة الأربعة المجتهدين ونقارنَها بأقوال شيوخهم .

ولكنَّ هذه الفضيلة قَلَّتْ في المتأخرين، ولا أعرف ذلك فيهم كما عرفته في الإمام النووي رحمه الله تعالى، [٧] تراه عندما يترجم رجلاً من أهل الفضل يذكر فضائله وما يليق به من الثناء الطيب، لكنه عندما يتكلم في مسألة علمية تراه متجرداً عن غلبة العواطف، تظهر فيه محبةُ إظهار الحق غالبةً إجلالَ من يُجِلُّهُم وينتسب إليهم مِنْ شيوخه وأهل مذهبه، وفي المجموع وغيره من كتبه أمثلة كثيرة.

منها أنه عندما رأى أن مذهب الشافعية ومذهبَ أبي حنيفة وأصحابه وسفيان الثوري وجمهورِ العلماء **أن ابتداء مدة المسح على الخفين من أول حدث بعد اللبس،** ورأى قوة الدليل في القول الآخر الذي قاله الأوزاعي وأبو ثور، **وهو أن ابتداء المدة من حينِ يمسح بعد الحدث،** رجحه على قول الشافعية والجمهورِ واختاره وقال عنه: وهو المختار الراجح دليلاً، وذكر أنَّ ابن المنذر اختاره أيضاً.

وكان — رحمه الله تعالى – إذا رأى الخطأ عند من عُرِفَتْ زيادة فضله بالغ في بيان وجه الصواب لئلا يُغْتَرَّ بجلالة قائله .

---

(٧) لا شك أن النووي رحمه الله تعالى أخذ هذا الخير وغيره من أحوال شيوخه ومن سبقهم من أهل العلم، الذين كانوا يأخذون الحق، ويتمسكون به، ويتركون الخطأ وإن كان عليه بعض مَنْ يُجِلُّونَهم مِنْ شيوخهم أو شيوخ شيوخهم، دون أن يترك ذلك نقصاً في محبتهم وإجلالهم لهم، جزاهم الله تعالى عنا خيراً، ومثلُ النووي كثيرٌ من المتأخرين، ولكن إذا نظرنا إلى عامَّة المتأخرين وجدناهم قليلاً .

وقد عقد في كتابه **حلية الأبرار** باباً في ألفاظٍ حُكي عن جماعةٍ من العلماء كراهتُها وليستْ مكروهةً، قال فيه:

(**اعلم أن هذا البابَ مما تدعو الحاجةُ إليه لئلا يغترّ بقولٍ باطلٍ ويعوّل عليه .**

ثم قال: واعلم أن أحكامَ الشرع الخمسة، لا يثبتُ شيء منها إلا بدليل .

وقال: وإنما عقدتُ هذا الباب لأُبيِّن الخطأَ فيه من الصواب لئلا يُغترّ بجلالة مَن يُضاف إليه هذا القول الباطل .

فمن ذلك ما حكاهُ الإمامُ أبو جعفر النحاس في كتابه شرح أسماء اللّه تعالى سبحانه عن بعض العلماء أنه كره أن يُقال: تصدّق اللّه عليكَ، قال: لأن المتصدّقَ يرجو الثواب، قلتُ: هذا الحكم خطأ صريح وجهلٌ قبيح، والاستدلال أشدُّ فساداً....) اهـ .

[حلية الأبرار/ كتاب حفظ اللّسان/ بابٌ في ألفاظٍ حُكي عن جماعةٍ من العلماء كراهتُها وليستْ مكروهةً]

ومن المفيد هنا بيان حقيقة مهمة، وهي أن التعصب لا يكون إلا مع قلة العلم، فإذا قلَّ علم الإنسان ضاقت نظرته للأمور، وكلما ازداد علمه توسعت نظرته، وهذا أمر مشاهد .

فإذا كان على الرأي الفقهي دليل فإن الرأي الآخر له دليل .

وإذا كان الأصل في الأمر الدلالة على الوجوب فإنه قد يكون للندب .

وقد يستدل بحديث دلالته عامة وهناك دليل يخصصه، وقد يكون الدليل مطلقاً وهناك ما يقيده .

وقد يكون الحديث صحيحاً في ظاهره وفيه علة خفية توجب ضعفه .

وبالجملة فهناك عشرات المرجحات بين الأدلة المختلفة، وكلما اطلع طالب العلم على العلم وكلام العلماء ازدادت مرونته، وقل تعصبه، وعَذَرَ المخالفين له .

العامل السابع: الانتماء للإسلام وترك انتماءات التصنيف

وذلك أن تكون نسبتنا إلى الإسلام فقط، إلى الإسلام بعمومه وصفائه، دون نسبة أو صبغة أخرى، الإسلام تلك الكلمة العظيمة الطيبة، التي علمنا القرآن الكريم أن ننتسب إليها ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ** ﴾ [الحج/٧٨] .

وقد رأيت من الضروري النافع، ومن أسباب السلامة والعافية، لي ولمن أحب لهم الخير، **أن يكون أحدنا مستقلاً، لا ينصبغ بصبغة جماعة معينة**، ومع ذلك أنصح أن يكون كلٌ مِنَّا صديقاً وأخاً لكل واحد من أمة سيدنا محمد ﷺ [(٨)] .

والذي يدفعنا إلى هذا الاختيار أمران :

الأمر الأول : يُسْرُ تَمَسُّكِنا بحقيقة الإسلام

فلسنا بحاجة في تديننا إلى هذه الانتماءات؛ لأن الله تعالى أنعم علينا بنعمة عظيمة، وهي أن كلاً منا يستطيع أن يكون في تَدَيُّنِهِ بعد مرور أربعة عشر قرناً على جادة الإسلام المستقيمة الواضحة كما جاء بها رسول الله ﷺ دون انحراف؛ وذلك بسبب وجود أسس الاستقامة التي تركها لنا النبي ﷺ والتي هي محور تديننا الذي لا نبتعد عنه .

---

(٨) ومما اخترته أن لا أكون صاحب طريقة صوفية ولا صاحب صبغة سلفية مما ينتشر في عصرنا هذا، مع أن هؤلاء وهؤلاء إخوة لنا نحترمهم ونحبهم، وإن كانت لنا ملاحظات وانتقادات على كثير منهم .

وليس هذا الاختيار تنكراً للأجلَّةِ من خيار الموصوفين بالتصوف المتقيدين بالكتاب والسنة المحذِّرين من البدع والمحدثات كالفضيل بن عياض والجنيد البغدادي رحمهما الله تعالى وأمثالهما ممن تستضيء قلوبنا بذكر كثير من سيرتهم وأحوالهم الموافقة للسنة .

كما أنه ليس رفضاً ولا بُعداً عن منهج السلف من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين رحمهم الله تعالى لأن منهجهم هو طريق الحق الذي لا يجوز أن نحيد عنه، ولا خيار لنا في ذلك، وهم خير هذه الأمة .

وهي الحصن الحافظ لنا من الابتعاد والانحراف عن صراط الله المستقيم .

وهذه الأسس هي المحور الذي لا يجوز أن نبتعد عنه، وهي الحصن الذي من تجاوزه هلك، وهي منحصرة في الأمور الأساسية التالية:

أولاً: كتاب الله تعالى الذي تكفل الله تعالى بحفظه، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثانياً: سنة رسوله ﷺ، التي تبين لنا ما أجمل في القرآن الكريم، وتفصل وتفسر لنا ما يشكل علينا في فهمه .

ثالثاً: سنة الخلفاء الراشدين ﭫ، الذين هم خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ وهم الذين أرشدنا رسول الله ﷺ أن نجعل سُنَّتَهُم ﭫ بعد سنته ﷺ الملاذَ لنا عندما تتشعب بالأمة الأهواء، وتكثرُ فيها الضلالات .

وذلك في حديث العرباض بن سارية ﭬ عندما وعظهم ﷺ في آخر حياته موعظةً بليغةً وَجِلَتْ منها القلوب وذرفت منها العيون وفهم الصحابة ﭫ منها أنها موعظةُ مودّع وقال فيها ﷺ : « **فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلاَفاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرّاشِدِينَ المَهْدِيّينَ تَمَسّكُوا بِهَا، وَعَضّوا عَلَيْهَا بِالنّوَاجِذِ** » .

[الترمذي / ٢٨١٦وأبو دواد/ ٤٦٠٧]

رابعاً: المنهجُ العام الذي سار عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين هم خيرة هذه الأمة، والذين عاشوا في خير عصورها، أولئك الذين أخبرنا الله العليم الحكيم بأنهم قدوة لنا بعد رسول الله ﷺ ، وأخبرنا أنه رضي عنهم ورضوا عنه، وأن رضاه يشمل من يتبعهم بإحسان .

قال تعالى: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [التوبة/١٠٠] .

وعلى ذلك المنهج سار الصحابة ﭫ والتابعون وأتباعهم، والأئمة المجتهدون ومن تبعهم مِنَ العلماء الربانيين .

فمن الواجب علينا أن نتقيد في تَدَيُّنِنا بتلك المقومات وأن لا ننحرف عنها لأنَّ من حق الإسلام علينا، ومن حق المسلمين، بل ومن حق غير المسلمين أن يكون إسلامنا صافياً نقياً على حقيقته البيضاء، لا يشوبه شيء .

وذلك لأنه إذا كان لمن يتكلم باسم هذا الدين، وكانت له أو لمن يعتبرهم أئمةً أو قدوةً خصائصُ، فينبغي أن يتنبه إلى أمر مهم، هو احتمالُ أن لا تكون هذه الخصائص من جوهر الإسلام، أو احتمالُ أنها لا تعتبر في ميزان العلم موافقةً لدين الله تعالى .

وإذا كان الأمر كذلك فإنه في هذه الحالة يكون قد ظلم نفسه؛ لأن من حقها أن يسيرها في الصراط المستقيم، وظلم من يرشدهم ويُوَجِّهُهُم كذلك، ويكون قد شارك في تشويه الإسلام، وظلم غير المسلمين الذين كُلِّفْنا أن ندعوَهم إليه نقياً صافياً، كما تركه رسول الله ﷺ وكما سار عليه السابقون الأولون .

ونتيجةً للغفلة عن هذا الأمر المهم تكونت عند كثير من المسلمين، وعند غيرهم تصوراتٌ غيرُ صحيحةٍ عن الإسلام، سواء في العقيدة أو العبادات أو التشريع أو غير ذلك.

الأمر الثاني [٩] : آثارٌ ضارَّة لانتماءات التصنيف

وقد نتج عن كثير من الانتماءات الدينية الخاصة والانصباغ بصبغة الجماعات المختلفة آثارٌ ضارَّة في الدنيا والآخرة، لا توافق ما يرشد إليه النبي ﷺ ولا تتلاءم مع أهداف الدعوة الإسلامية ولا توافق صفات المؤمنين، وستظهر في الآخرة آثارٌ أكثرُ ضرراً عندما يتحقق قولُه تعالى: ﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأعراف/ ٦] .

ومن هذه الآثار:

---

(٩) أي من الأمور التي تدفعنا إلى اختيار الانتساب للإسلام فقط بعمومه دون الانتماءات الخاصة، وأن لا أكون صاحب طريقة صوفية ولا صاحب صبغة سلفية مما ينتشر في عصرنا هذا، وتقدم الأمر الأول قبل ثلاث صفحات .

١- التفرق والتنافر بدل التوافق والائتلاف

علينا أن نتذكر أن الله تعالى أكرم هذه الأمة بدينه العظيم الذي يجمع ولا يفرق، ويوفق ولا يمزق .

وأن نتذكر ما منَّ على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين بهذه النعمة فقال: ﴿ **لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ . [الأنفال/ ٦٣]

وأن نتذكر أنَّ الصراع الذي يتولد من التحزباتِ والشقاقِ عقوبةٌ جعلها الله من عقوباته يعاقب بها من يشاء، حيث قال: ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ** ﴾ [الأنعام / ٦٥] .

ونشاهد في الواقع كيف يشتغل كثير من المنصبغين بالصبغات الخاصة بالخصومات والمهاترات، وأحياناً بالسِّباب، ويُخشى أن تنطبق على كثير منهم صفةُ ((**وإذا خاصم فجر**)) التي هي ليست من صفات المؤمنين .

لقد عمت هذه الخصوماتُ كثيراً من مجتمعاتِ المتدينين في المساجد والبيوت وغيرها، وتزايدت على شبكات الإنترنت، التي كان لها أكثر الضرر، وتزايد هذا الضرر بشكل خاص على الشباب الذين ليس لهم نصيب وافر من العلم الشرعي يَزِنُونَ به الأمورَ، وليس لهم مرجع ديني موثوق بأهليته يَتَلَقَّوْنَ منه الأسسَ والأحكام الشرعية، ويستشيرونه فيما يشكل عليهم من الأمور (١٠) .

---

(١٠) من الصفات التي تكثر في أصحاب الدعوات الدينية الخاصة المختلفة أنهم يركزون على التشكيك في العلماء المعاصرين ، وخصوصاً العلماء الذين هم أقرب إلى التحقق العلمي أو السابقين من الراسخين في العلم لأنَّ رجوع الناس إلى هؤلاء العلماء قد يكون سبباً لعدم استجابتهم لكثير من أصحاب الدعوات الدينية الخاصة، وعدم قبول كلامهم . ومثلهم في هذا التشكيك أصحاب الدعوات الباطلة على اختلاف اتجاهاتهم .

وصرنا نرى شباباً معظمُ ما عندهم من التدين أمورٌ ملكت عليهم قلوبهم وعقولهم ونفوسهم لا ثمرة لها إلا الحذر والتحذير ممن يخالفونهم والطعن فيهم (١١) والرد عليهم، حتى بلغ الشيطانُ بغيتَه وصار بعضُ المسلمين معظمُ تدينِه الانشغال بأخطاء إخوانه، أو بما يتوهم أنها من أخطائهم .

وقد حذرنا الله من النِّزاعات، ونهانا عنها، وأنذرنا محذراً لنا مما تُسَبِّبُهُ من الفشل والضعف فقال تعالى: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال/ ٤٦] .

ومع حُسنِ الظن في نِيَّاتِ جميع الإخوة المختلفين، والرجاء أن يكرمنا الله تعالى ويكرمهم بالعافية، وأن يعيذنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا لا بد لنا من التفكير في العواقب، وأن نتذكر أنَّ تحريك نار الفتنة والخصومة والعداوة يَسُرُّ أعداء الأمة ولا يرضى به الله تعالى ولا رسوله ﷺ ويتألم به كثيراً المؤمنون الصالحون .

٢– الوقوع في معصية الله تعالى في الغيبة، التي لم يَتْرُكْ رسول الله ﷺ تفسيرها لنا، بل فسرها هو بنفسه فقال: ((**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِن كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتّهُ**)) [مسلم/ ٢٥٨٩] .

٣– أن يحتقر المسلم أخاه، وذلك كافٍ أن يجعل المسلم المحتقر لأخيه من أهل الشرِّ، وقد حذَّر من ذلك رسول الله ﷺ فقال: ((**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**)) [مسلم / ٢٥٦٤] .

---

(١١) وقد شاعت في الطعن ألفاظ سيئة وألقاب منكرة يرمي بها بعض المسلمين بعضاً حتى وصلوا إلى كلمة: **كافر** أو كلمة **عدو الله** ومن العجيب أنَّ وصف الكفر صار يطلق على أناس يعدون عند جماهير العلماء وجماهير الأمة من كبار العلماء والدعاة السابقين والمعاصرين، وقد زارني رجل عرفت أنه ألف كتاباً في الرد على رجل من أهل العلم والدعوة المشهورين ، وكنت متعجباً من هذا الرد الذي له آثار سيئة فلما ذكرته بقبح مثل هذا العمل كان تعجبي من جوابه أكبر من تعجبي من تأليفه ، عندما قال لي: **نحن لا نرد إلا على أعداء الله تعالى،** ومثل هذا كثير في الجماعات الدينية المختلفة .

٤– **تضييع الجهود وبذلها فيما لا خير فيه،** فقد ضاعت جهود كثير من الطيبين عندما شُغلوا بهذه الخلافات التي لا فائدة منها ومن أضرارها أن ينشغل الناس عن المهمات الأساسية التي تقرب العبد إلى مرضاة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ من البناء الإيماني المتين، الذي ينتج عنه صلاح الأحوال والأعمال.

٥– عدم التوازن بسبب ضغوط الانتماءات

يغلب على كثير من الناس عندما يكون لهم انتماء خاص أن يكونوا محكومين بضغوط هذا الانتماء، وفي الغالب يكون لهذه الضغوط نتائج لا يكتشف المسلم خطورتها إلا عندما يفاجأ وقد أضاع أغلى أوقاته وأهدر شبابه في أعمال تولدت من تلك الضغوط والمؤثرات، لينتقل بعد ذلك إلى المسؤولية أمام الله تعالى يوم الحسرة عندما لا ينفع الندم ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا** ﴾ **[آل عمران / ٣٠]** .

ومما تَرَكَتْهُ ضغوطُ الانتماء أنك ترى بعض هؤلاء يسارع في رفضِ وإبطالِ أيِّ رأيٍ قبل دراستِه والنظرِ فيه، لمجرد أنَّ قائلَه له انتماءٌ لا يرضاه.

وترى آخرين سريعين في التذمر من أيِّ أخ أو أيِّ طالب علم قد يكون في أول الطلب لمجرد أنه سلك مسلكاً مغايراً لمسلك مشايخهم .

وترى آخرين يستصغرون جهود غيرهم، أو يتهكمون بها لأنهم لم يسمعوها ممن ينتمون إليهم .

وأحياناً تُستخدَم وسائل المكر والحيل للنيل من الآخرين وإلحاق الهزيمة بهم ولو كانوا من المؤمنين .

وترى أيضاً تفضيل من ينتمي إليهم على غيره لمجرد انتمائه، ويكفي غيرَ المنتمي إليهم عيباً أنه لم ينتم إليهم .

الفصل الثاني

منهج بناء الإيمان [(١٢)]

العقيدة الإسلامية تُلائم العقل والكرامة الإنسانية

من أعظم ما يتناسب مع كرامة الإنسان اعتبار الخصوصية التي ميزه الله تعالى بها وهي نعمة العقل .

والإسلام الذي علم الإنسان الكرامة التي أعطاه الله تعالى إياها، وبين له منْزلته التي رفعه الله إليها راعى هذه الخصوصية أكمل المراعاة، فأرشده إلى الاستفادة من العقل الذي خصه الله به وأمره أن يبني عقيدته على مقتضياته، وأن يكون بناؤها على أعلى أسس العلم والمعرفة .

ومن مراعاة الإسلام لهذه الخصوصية أنه جعل هذه العقيدة واضحةً بَيِّنةً، بعيدةً عن التعقيد، ومُلائمةً للفطرة .

وإذا نظرنا إلى عقيدتنا العظيمة ظهر لنا ذلك واضحاً في الأمور التالية :

١- فقد جعل الإسلامُ أعظمَ خصائص الأتْباع الحقيقيين لرسول الله ﷺ أنهم في دينهم على علم يقينيٍّ وبصيرة وبرهان، قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ **[يوسف/١٠٨]** وهذا من أعظم نعم الله تعالى على هذه الأمة .

٢- أن الله تعالى قد مَنَعَنا في شريعته التي أكرمنا بها سبحانه وتعالى من اتِّباع ما لا علم لنا به فقال:

---

(١٢) الذي قصدته في هذا الفصل بيان المنهج الذي ينبغي أن يُبنى عليه الإيمان، وقد صدر لي حديثاً كتاب **المنهج المفيد في بناء الإيمان والعقيدة** حرصت أن يكون على هذا المنهج .

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء/ ٣٦] .

٣- أن القرآن الكريم قد أرشدنا في حوارنا مع المشركين أن نقول لهم: ﴿ **هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ وليس من المعقول أن نقول لهم ذلك ونحن على التقليد الأعمى بلا علم ولا دليل، قال تعالى: ﴿ **أَمَّنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [النمل/٦٤] .

ووضوحُ هذه العقيدة، وملاءمَتُها للفطرة، وبناؤها على الدليل والبرهان، نعمةٌ يجب علينا أن نشكر الله تعالى عليها، ولا يتحقق هذا الشكر بمجرد النطق بالحمد، بل يتحقق بأن ينبع الحمدُ من قلوبنا ممتلئةً به، مع سعينا وحرصنا على التحقق بهذه الخاصة التي هي العلم والمعرفة اليقينية في أمورنا بشكل عام، وفي إيماننا وتَمَسُّكِنا بهذا الدين والدعوة إليه بشكل خاص، فما هي الأسس التي نبني عليها إيماننا لنكون من الشاكرين ؟ .

من أسس البناء المتين للإيمان

يكون البناء المتين للإيمان على الأسس الْمُبَيَّنَةِ في النقاط التالية:

النقطة الأولى : نبني إيماننا بالله تعالى بالبرهان العلمي على منهج القرآن الكريم

وهو المنهج الذي عندما يذكر الإيمان بالله تعالى يرشدنا إلى التفكير في مخلوقاته التي تدلُّ كلَّ مُتَفَكِّرٍ على وحدانية الله تعالى وصفاته العظمى، وذلك في عامَّةِ آيات القرآن الكريم .

ومن الأمثلة على ذلك أن الله سبحانه بعد أن بين للعباد وحدانيته وصفاتِ كمالِه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ أرشدهم إلى أن يكونوا في إيمانهم على العلم والدليل فقال: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ**

اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

[البقرة/ ١٦٣ – ١٦٤]

ومن الأمثلة أيضاً ما نجده في أول سورة النحل:

حيث حذر فيها من الشرك، وبين ما يجب على العباد من الإيمان بالله تعالى وحده والخضوع له في قوله تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾

ونجد بعد هذا البيانِ الإرشادَ إلى التفكير الموصل إلى المعرفة واليقين فيما يليها من الآيات ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ونجد في السورة التذكير والإرشاد إلى التفكير كثيراً متكرراً إلى آخر السورة وهكذا في كثير من آيات القرآن الكريم .

النقطة الثانية:

نبني إيماننا برسول الله ﷺ على البرهان العلمي على منهج القرآن الكريم أيضاً

ويكون ذلك اعتماداً على دلالة معجزاته ﷺ التي أعظمها القرآن الكريم الذي عجز البشر عن الإتيان بما تحداهم به حيث تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة / ٢٣] .

ووُجوهُ إعجاز القرآن كثيرة، وأهمُّها في عصرنا الإعجازُ العلمي، ويظهر ذلك في جانبين:

الإعجازُ العلمي للقرآن الكريم:

الأول: عدم تناقضه مع شيء من حقائق العلم المتجددة، مع أنه مضى على نزوله ما يزيد على أربعة عشر قرناً، وتحدث عن مئات الظواهر الكونية التي ظهرت حقائقها في هذا العصر وتغيرت نظرة علمائه فيها عن نظرة من كان قبلهم في العصور الماضية القريبة والبعيدة، وتبين فيها خطأ كلام العلماء السابقين، أما ما ذكره القرآن فلا توجد فيه قضية واحدة تتنافى مع حقائق العلم الحديثة (١٣) .

الثاني: ذِكْرُهُ لحقائقَ كونيةٍ لم يكن عند أحد من البشر علمٌ بها في عصر نزول القرآن الكريم، وهذه الحقائق أمثلةٌ داخلة تحت ما أخبر الله تعالى عنه بقوله عز وجلَّ: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ **[فصلت/٣]** ومرتبطاً بقولِه سبحانه ﴿ **قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ **[الفرقان/ ٦]**.

النقطة الثالثة: نبني بقية عقائدنا على أدلة القرآن وعلى كلام رسول الله ﷺ

بعد الإيمان بالله تعالى وحده والإيمان برسوله ﷺ وبأن القرآن كلام الله تعالى حقاً مبنياً على المنهج الذي تقدم، نبني بقية عقائدنا على أدلة القرآن الذي ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ **[فصلت/ ٤٢]** وعلى كلام رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى عنه ﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ **[النجم / ٣و٤]** .

---

(١٣) وإذا وجدتَ من يتوهم وجود تناقض بين آية قرآنية وبين حقيقة علمية وبحثتَ في قوله وجدته على إحدى حالتين :

الأولى أنه لم يفهم الآية القرآنية على وجهها الصحيح .

الثانية أنه لم يفهم الجانب العلمي أو أنه ذكر نظرية احتمالية لم يثبتها العلم بأدلته وبراهينه فتكون من قبيل احتمالات وظنون الباحثين، ومثل هذه الأمور لا تسمى علماً .

نبني بقية عقائدنا بآية قرآنية واضحة الدلالة أو حديث صحيح واضح الدلالة، نبنيها موافقة لما كان عليه الصحابة ﷺ والتابعون، والأئمةُ المجتهدون مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل، رحمهم الله تعالى، ونبتعد عن الخوض فيما لم يخض فيه هؤلاء الكرام الذين هم القدوة الصالحة لهذه الأمة، ونعلم أنَّ ما عدا ذلك لا تؤخذ منه عقيدة .

النقطة الرابعة : نبتعد في بناء عقيدتنا عن منهج الفلاسفة و عن علم الكلام

نحرص أن نبتعد في بناء عقيدتنا عن منهج الفلاسفة و عن علم الكلام الذي حذر منه الراسخون في العلم، ومنهم الإمام الشافعيُّ رحمه الله تعالى، وكذلك الغزالي رحمه الله تعالى في آخر حياته، وقد ذكر الإمام النووي رحمه الله تعالى في مقدمة كتاب المجموع التي ملأها بالفوائد الضرورية لطلاب العلم، ذَكَرَ التحذيرَ من علم الكلام، وذكر كثيراً من كلام العلماء في ذلك، وسأنقل بعض هذا التحذيرِ عندما أتحدث بعد النقطة الخامسة عن علم الكلام وعن الأشاعرة .

النقطة الخامسة : مع الأدلة والبراهين عقيدتُنا نورٌ في القلوب

مع الأدلة والبراهين نحرص أن تكون العقيدة نوراً إيمانياً تغرسه أنوارُ القرآن وأسماءُ الله الحسنى في القلوب، بالإضافة إلى الأذكار والأدعية التي سُقِيَتْ بها قلوبُ السابقين الأولين مما يُنْتِجُ الشُّعَبَ الإيمانية التي تَعْمُرُ القلوب، من خشية الله تعالى والخوف من سوءِ الحساب، فمعرفة صفات الله تعالى تترك في القلب معاني الحياءِ من الله تعالى والأدبِ معه، مع ذكر الله ومراقبته ودوامِ التوبة إليه، وصدقِ التوكل عليه وغيرِها، مما يصلح القلوب، وكذلك بقية جوانب الإيمان الأخرى .

وأهم تلك الجوانب بالإضافة إلى الإيمان بالله تعالى ومعرفة صفاته الإيمان باليوم الآخر، يوم الدين الذي هو الجزاء، حيث يترك هذان الجانبان في قلوب الصالحين أهم صفات أولي الألباب التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا**

أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴾ [الرعد/ ١٩– ٢١] وهذه الأنوار الإيمانية ضرورية ولا تَصْلُحُ أعمال الإنسان وأحواله إلا بها .

غلبة الجدل في أمور العقيدة بُعدٌ عن التوفيق

ونحرص أن نبتعد في عقيدتنا عن الخلاف والجدل في مفردات المسائل الجزئية التي تقبل الخلاف (١٤) .

وإن مما يجرح القلوب ويؤلمها ما **نراه** في عصرنا من انشغال الناس في الجانب الإيماني بأمور فكرية جدلية مما يختلف فيه الناس، وابتعدوا في ذلك عن الحال الصالح الذي كان عليه الصحابة ﷺ .

ومن الأمثلة على ذلك أن الصحابة ﷺ سمعوا رسول الله ﷺ يقول: « **يَنْزِلُ رَبُّنا كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْل الآخِر فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُني فأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُني فَأَغْفِر لَهُ؟** » [البخاري/ ١٠٩٤ ومسلم / ٧٥٨] سمعوا فآمنوا بما

---

(١٤) نقل النووي في شرح مسلم عن القاضي عياض أنَّ بعض مشايخه توقف في مسألة رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج التي أثبتها ابن عباس رضي الله عنهما ونفتها عائشة رضي الله عنها، وكذلك رجح أبو العباس القرطبي القول بالوقف في هذه المسألة وعزاه لجماعة من المحققين وقواه لأنه ليس في الباب دليل قاطع وغاية ما استُدِل به للطائفتين ظواهر متعارضة قابلة للتأويل، قال وليست المسألة من العمليات فيكتفى فيها بالأدلة الظنية، وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي . [**راجع شرحي مسلم للقرطبي والنووي كتاب الإيمان /باب معنى قوله تعالى : ولقد رآه نزلة أخرى، وفتح الباري لابن حجر، تفسير سورة النجم**] .

وأنا إذا سئلتُ : هل رآى النبي ﷺ ربه؟ فأجبت بأنِّي لا أدري، لم يكن عليَّ في ذلك حرج، ولا يسألني الله تعالى عن ذلك يوم القيامة .

فإذا رأى المحققون من الخير أن يتوقفوا عن الخوض في بعض ما تكلم به الصحابة الكرام ﷺ فالأولى بالمبتدئين في طلب العلم أن يتوقفوا عن الخوض في المسائل التي تثير الجدل في عصرنا مما لم يتكلم به الصحابة ﷺ والتابعون ولا الأئمة المجتهدون رحمهم الله تعالى .

قال، من غير تأويل ولا تفسير، مع معرفتهم أنه سبحانه لا يحيطون به علما، وعرفوا أنَّ لهذا الوقت مزيةً في قبول دعائهم وأنه ﷺ يوجههم بهذا إلى عمل صالح، فاشتغلوا بما وجههم إليه ﷺ دعاءً وتضرعاً وبكاءً، ولم يترك هذا الحديث في حياتهم بحثاً ولا جدلاً، ولا خصومة ولا عداوة، إنما ترك في حياتهم أنَّ جنوبهم تتجافى عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وتوبةً واستغفاراً، وجعلهم سماعهم لهذا الحديث من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة / ١٦] .

بينما نجد بعض الإخوة لم يترك مثلُ هذا الحديث فيهم إلا الجدلَ والخصومةَ وما ينتج عنهما من الشر .

فائدة في بيان نشأة علم الكلام ونشأة الأشاعرة

بدأتْ بعض الفتن المرتبطة بالأفكار الدخيلة على الإسلام تتسرب إلى المجتمع الإسلامي في أواخر عصر الخلفاء الراشدين ﷺ كأفكار الخوارج الذين كانوا يُكَفِّرُونَ مرتكب الكبائر من الذنوب، وانحرف أناس بهذه الفتن عن سواء السبيل، وجعلوا يتكلمون في أمور الدين الإسلامي، بغير الحق، ويظنون أنهم على علم ومعرفة أصحَّ وأعظمَ مما عند غيرهم، حتى وُجِدَ فيهم مَنْ ينكر القدر ويزعمون أن الله تعالى لا يعلم الأمور إلا بعد حصولها [١٥]، كما عبر عن ذلك يحيى بن يَعْمَر حين قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أبا عبدالرحمن! إنه قد ظهر قِبَلَنَا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أُنُفٌ، قال: ((**فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم بُرَآءُ مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثلَ أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر**)) [مسلم / ٨] .

ثم دخلت الفلسفة واشتغل الناس بها .

---

(١٥) يلاحظ أن مِنَ صفات أهل الضلال أنهم مع هذه الانحرافات الخطيرة وبسبب تزيين الشيطان لهم يرون أنهم على الحق والهدى، وأنَّ غيرهم على الباطل والضلال .

ومما نتج عن ذلك أمر خطير هو تحكيم العقل في نصوص القرآن والسنة، فيما يتعلق بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وبأمور الغيب .

والعقلُ في هذه الجوانب الإيمانية الغيبية عاجز إذا لم يستضئ بأنوار الوحي، لأن شأنه أنه يأخذ مقومات أحكامه مما يتعرف عليه الإنسان من المحسوسات .

أما ما وراء محسوسات الإنسان فإن العقل غير قادر على الحكم فيها لأنه لا يملك الأوليات التي يحتاج إليها ليصل إلى الحكم بشأنها، ولذلك ضل كثير من الناس عندما حكَّموا العقل في أمور الغيب .

وكان من نتائج تحكيم العقل انتشارُ كثير من الضلالات والعقائد التي تخالف ما تَعَلَّمَه الصحابة ﷺ من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله ﷺ .

ومعظمُ هذه الضلالات ظهرت عند المعتزلة وعند كثير من الفلاسفة .

وبعد ظهور هذه الضلالات وغيرها وانتشارها بَيْنَ المسلمين قام بعض علماء المسلمين بالرد على الفلاسفة والمعتزلة وعلى غيرهم من أهل الأهواء، وفي مقدمة هؤلاء العلماء الإمامُ أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى، الذي كان معتزلياً فأنقذه الله تعالى وهداه .

وتبعه على هذا العمل الصالح أناس كثيرون من أهل العلم سُمُّوا بعد ذلك بالأشعرية، يَرُدُّون ضلالات الفلاسفة والمعتزلة وغيرهم، ويبينون زيفها .

وكان جانبٌ من منهجهم في ردِّ ضلالاتِ الفلاسفةِ والمعتزلةِ أنهم قاوموا ضلالاتهم بمثل أسلحتهم، وخاطبوهم بلغتهم، وناقشوا معهم أموراً بعيدة عنا اليوم، وبعيدة أيضاً عما كان عليه الناس في عصر الصحابة ﷺ لكنَّ هذه الضلالات كانت مطارقَ تطرق أسماع الناس وتفكيرَهم في ذلك الزمن وما بعده، صباحاً ومساءً بحيث لا يستطيعون التغافل عنها وهم يرون تأثر الناس بها .

وقد أطلق على ذلك الجانب فيما بعد اسم **[علم الكلام]** وكان مرتبطاً بفلسفة اليونان .

وإذا اجتهد بعض أهل العلم في ذلك الزمان ورأوا حاجةً إلى ذلك المنهج، فإنَّ المحققين من العلماء رَأَوْا أنه لا حاجة إليه في العصور اللاحقة، ونحن أيضاً لا نحتاج إليه أيضاً في عصرنا هذا، ونرى الخير في دراستنا للعقيدة أن تكون مبنية على منهج القرآن الكريم الذي يناسب كل العصور وجميع طبقات الناس، ويلائم الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، وأن نكون في هذه الدراسة بعيدين عن الفلسفة وعلم الكلام، الذي لا يتلاءم مع الفطرة .

ومع هذا فإننا لا نعد الأشاعرة والماتريدية من الفرق الضالة كما يتوهم بعضهم، وإن وُجِد في كلامهم جانب من علم الكلام، وما كان رؤوسهم ليشتغلوا بما اشتغلوا به لولا الدفاع عن عقيدة أهل السنة .

لقد امتُحِنُوا امتحاناً صعباً، لم يكن لهم منه بد، عندما قاموا بواجب الرد على ضلالات الفلاسفة والمعتزلة وغيرهم من أهل الضلالة، واجتهدوا في أمر لا بد لهم من الاجتهاد فيه، ونتج عن ذلك تأثرهم بمنهج الفلاسفة وعلم الكلام.

وأظن أنه لو كنا في عصرهم وامتُحِنَّا ذلك الامتحان لتأثرنا بمثل تأثرهم .

والإنسان عرضة للتأثر ببعض المؤثرات في كثير من الحالات وإن رغب في عدم التأثر بها [١٦] .

هذا ولو أن استعمال الفلسفة وعلم الكلام اقتُصِرَ فيه على تلك الردود في عصرها وعند الحاجة إليها وانتهى لكان الأمر سهلاً .

---

(١٦) لقد تصفحت يوماً كتاباً مشهوراً في العقيدة، وكان مؤلفه حريصاً على أن يكون كتابه على منهج القرآن والسنة، وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة ﷺ والتابعين، وأن يكون بعيداً عن علم الكلام، واشتغل في كتابه في بعض المسائل بالرد على أهل علم الكلام، لكنه لم يملك في تلك المسائل إلا أن يتأثر تأثراً ظاهراً بعلم الكلام الذي يكرهه ويحذر منه .

ولقد وجدت فيه من الكلام – مما يصعب فهمه، ومما تنقبض منه قلوب أهل الفطرة عندما رد على المتكلمين – ما لا تجد له مثلاً في القرآن الكريم ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة ﷺ والتابعين ولا في كلام أتباع التابعين متأثراً بعلم الكلام الذي يرده ويهرب منه .

ولكنَّ الأمر تطور بعد ذلك حتى صار علمُ الكلام الفلسفيُّ – بما فيه من الخصائص والتعقيد الْمُنَافِيَيْنِ لمنهج القرآن وسنة النبي ﷺ – منهجاً عامَّاً لدراسة علم العقيدة في كثير من بلاد المسلمين، وتَرَكَ هذا المنهج آثاراً ابتعد الدارسون بسببها عن منهج القرآن الملائمِ لكل العقول، المتوافقِ مع الفطرة، الذي يربط بين أنوار الأدلة والبراهين العقلية وضياء القلبِ المستنير بشعب الإيمان القلبية، التي يُبْنَى عليها صلاح الإنسان واستقامته .

هذا وإن الأشعرية ليسوا على حال واحدة، كما أنه ليس كلُّ من قيل عنه أشعريٌ يعتمد علم الكلام [١٧] ، وإذا كان من الخير أن نَحْذَرَ من بناء عقيدتنا بمنهج علم الكلام وإن اعتمده بعض الأشعريين، فإن من الخير أن نمسك عمَّا انحدر إليه بعض المتكلمين في الدين من الطعن في أناس كثيرين يَعُدُّهُم الراسخون في العلم من أعلام علماء هذه الأمة .

وإذا أرشدت إلى بناء العقيدة بمنهج القرآن والسنة، وحذرت من ربطها بعلم الكلام، فإني أُذكر بأن من السلامة والعافية في الآخرة عدم التلوث بمستنقع الصراع الذي قد يدفع إلى الإساءة إلى كثير من علماء هذه الأمة في عصور متعددة، ويبعد عن الأدب الإسلامي العظيم، ((**أن نعرف لعالِمنا حقه**)) [١٨] .

ومن المفيد في هذا الباب أن نعلم أنه لا يمثل الأشعريةَ كتابٌ من كتب المتأخرين في كل ما يحويه هذا الكتاب .

كما أنه لا يمثل مذهبَ الشافعي أو مذهبَ غيره كتابٌ من كتب المتأخرين المنتسبين إلى مذهبه في كلِّ ما يحويه [١٩] .

---

(١٧) كما يظهر من كلام الإمام النووي الآتي بعد قليل .

(١٨) تقدم معنا حديث عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه**)) [**رواه أحمد والطبراني وإسناده حسن.**] .

(١٩) والسبب في ذلك أنَّه وُجد في بعض كتب المتأخرين المنتسبين إلى العلماء السابقين أمور كثيرة لا يصح اعتبارها منسوبة إلى أولئك العلماء، فأصحاب الحواشي الفقهية يذكرون فيها

وقد نقل النووي في مقدمة المجموع في فصل آداب الفتوى عن ابن الصلاح رحمهما الله تعالى:

أن المفتي يمتنع عن الفتوى في مسائل علم الكلام، ويمنع مستفتيه من الخوض فيه، أو في شيء منه، وإن قلّ، وذكر أن ذلك هو الصواب من أئمة الفتوى وهو سبيل سلف الأمة وأئمة المذاهب المعتبرة وأكابر العلماء والصالحين.

ثم قال: والمتكلمون من أصحابنا معترفون بصحة هذه الطريقة، وأن الغزالي كان منهم في آخر أمره وأنه كان شديدَ المبالغة في الدعاء إليها والبرهنة عليها، ثم نقل مثل ذلك عن إمام الحرمين وغيره، بل نقل عن الغزالي أن من يدعو العوام إلى الخوض في صفات الله تعالى كالخوض في صفة الكلام ليس من أئمة الدين وإنما هو من المضلين اهـ [المجموع ١ / ٨٧ – ٨٨] .

هذا كلام النووي وابن الصلاح وإمام الحرمين والغزالي في التحذير من علم الكلام وهذا منهجهم، فلا ينبغي أن يتهمهم أحد بأنهم من أهل علم الكلام، ويحذر منهم.

أموراً كثيرة من غير الفقه، ويذكرون فروعاً ومسائل وصوراً لا يتكلم بها الأئمة ولا أتباعُهم السابقون، فلا يصح أن ننسب إلى الشافعي كلَّ ما نجده في حاشية الباجوري على ابن قاسم، أو في حاشية إعانة الطالبين، وكذلك كثير من حواشي المتأخرين من أتباع المذاهب، انظر إلى حاشية الباجوري على الجوهرة فقد ذكر فيها قصةً عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنَّه رأى الله تعالى في النوم تسعاً وتسعين مرةً، فقال إن رأيته تمام المائة لأسألنه، .... الخ القصة، وهذه القصة لم يذكرها الباجوري كعقيدة يثبتها أو يرد على من يخالفها، وإنما ذكرها استطراداً، عندما تكلم على رؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة ولم يذكرها أحد من الأشاعرة كقضية عقيدة، كما أنه لم يذكرها أحد من المتقدمين الذين ذكروا مناقب الإمام أحمد ومناقب أتباعه، ومثل هذه القصص توجد في العادة كثيراً في كتب بعض المتأخرين دون أن يكون لها سند يعتمد عليه، فلا تصلح أن تكون مثالاً لما ينتقد على المذاهب المتبوعة للأئمة، وليس اعتمادها وروايتها من منهجهم .

ومن أراد أن يأخذ نظرة أصحَّ لأتباعِ المذاهب من أهل العلم فلينظر إلى تلاميذ الأئمة المجتهدين، ومن سار على نهجهم كالإمام النووي في المجموع وابن قدامة في المغني وإلى أمثالهما .

النقطة السادسة: الابتعاد في صفات الله تعالى عن التأويل

من الأفضل والأقرب إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﵃ أن نؤمن بصفات الله تعالى كما وردت، ولا نفسرها، ولا نؤولها، وهذا يبعدنا عن القول في الدين بما لا نعلم، لأنَّا نعلمُ عجزنا وضعفنا، نثبت ما أثبته الله تعالى لنفسه، ونعتقد أن صفات الله تعالى ليس كمثلها شيء، نُمِرُّها كما جاءت، ونعلم أن الخوض والبحث فيها مخالف لهدي السابقين الأولين الذين أَرْشَدَنا الله تعالى إلى اتِّباعِهِم بإحسان، مستضيئين في هذا بقوله سبحانه: ﴿**مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ [الحج / ٧٤] وقوله عز وجل: ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾ [طه / ١١٠] وقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى/١١] .

ونقتدي في هذا الخير بإمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى الذي تألم كثيراً وتَفَصَّدَ جبينُه عرقاً عندما سُئِل عن الله تعالى: كيف استوى؟ واعتبر هذا بدعة ضلالة، وطرد السائل من مجلسه .

قال ابن حجر في الفتح: وأخرج البيهقي بسند جيد عن عبد الله بن وهب قال كنا عند مالك فدخل رجل فقال يا أبا عبد الله **الرحمن على العرش استوى،** كيف استوى؟ فأطرق مالك فأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال: « **الرحمن على العرش استوى وصف به نفسه ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوع، وما أراك إلا صاحب بدعة أخرجوه** » وفي رواية أخرى من طريق يحيى بن يحيى عن مالك نحوَه، لكن قال فيه « **والإقرار به واجب، والسؤال عنه بدعة** » .

[فتح الباري / كِتَاب التَّوْحِيدِ. باب وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ]

وقد روى الترمذي عن أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: « **إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا لأَحَدِكُمْ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ حَتَّى إِنَّ اللُّقْمَةَ لَتَصِيرُ مِثْلَ أُحُدٍ** » [الترمذي / ٦٦٢] .

ثم قال الترمذي: وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات، من الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا، قالوا: قد تَثْبُتُ الروايات في هذا ويؤمَنُ بها ولا يتوهم ولا يقال كيف؟ هكذا رُوي عن

مالك و سفيان بن عيينة و عبد الله بن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث: أمروها بلا كيف، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة اهـ .

وقال الذهبي: ومعلوم عند أهل العلم من الطوائف أن مذهب السلف إمرارُ آيات الصفات وأحاديثِها كما جاءت من غير تأويل ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تكييف، فإن الكلام في الصفات فرعٌ على الكلام في الذات المقدسة، وقد عَلِمَ المسلمون أن ذاتَ الباري موجودة حقيقيةً لا مِثْلَ لها، وكذلك صفاته تعالى موجودة لا مِثْلَ لها . [سير أعلام النبلاء ٨ / ٤٠٢] .

بعض التأويل لا حرج فيه

وهذا الابتعاد عن التأويل ينبغي أن يكون معتدلاً فلا يصح أن نعتبر كل تأويل ضلالاً، والأمر يحتاج إلى تفصيل:

فعندما يكون التأويل ناتجاً عن غلبة الهوى، كتأويل بعض أهل الضلال من المسلمين الذين خالفوا ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﵃ والتابعون، ومن الأمثلة على ذلك تأويل من نَفَوْا رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وأوَّلُوا قولَه تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [القيامة / ٢٢ و٢٣] فقالوا: معنى: ﴿ **إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾: أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم، أي ينتظرون نِعَمَ الله التي يكرمهم بها .

أما إذا لم يكن في التأويل تلك المخالفة فلا حرج فيه، وقد تدعو الحاجة إلى بعض التأويل القريب الذي يوافق كلام السلف وأتباعهم من الراسخين في العلم وهذا لا حرج فيه، ولا يخالف مذهب السلف، ومن الأمثلة على ذلك:

١- قول الإمام البخاري في صحيحه: باب: تفسير سورة القصص ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ** ﴾: قال البخاري رحمه الله تعالى: إلا مُلْكَه، ويقال: إلا ما أريد به وجه الله .

٢- قول الطبري في تفسير﴿ **واللهُ مِن وَّرَائِهِم مُّحِيْطٌ** ﴾ : بأعمالهم، مُحْصٍ لَهَا، لا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا شيءٌ، وهو مجازيهم على جميعها .

٣- قول ابن كثير في تفسير ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا** ﴾ أيْ مُطَّلِعٌ عليهم، يسمع كلامَهم وسرهم ونجواهم، ثم قال: حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه المعيةِ معيةُ علمه تعالى (٢٠) .

٤ - قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد في تفسير ﴿ **بِأَيْدٍ** ﴾ من قوله تعالى: ﴿ **وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ [الذاريات : ٤٧] أي بِقُوَّةٍ [**تفسير ابن كثير ٤ / ٣٠٣**] .

---

(٢٠) من الخير الرغبة في التمسك بهذا الدين صافياً قريباً مما كان عليه الصحابة ﷺ وأن ننفر من المحدثات – وهذا أمر ضروري وطيب – ولكن علينا أيضاً أن نكون متوازنين مستبصرين ببصائر العلم في حكمنا على الأمور التي ننفر منها، فمن أحب أن يبتعد عن التأويل لبعض ما ورد من الآيات أو الأحاديث في صفات الله تعالى فلا ينبغي أن يملكه رد الفعل عندما يرى تأويلات بعيدة في هذا الجانب، ويُنتج عنده تنافراً بينه وبين بعض من عندهم شيء من التأويل، وعليه أن يحذر أيضاً – بسبب قلة معرفته – من الوصول إلى ما وصل إليه من اشتغلوا بانتقادكثير من كبار أهل العلم والفضل، وقد وصل الأمر ببعضهم إلى الطعن في كبار العلماء، في أمور لا يحسنون فهمَها، وفي هذا مسؤولية كبيرة تظهر آثارها يوم الحسرة يوم لا ينفع الندم .

ومن الخير الحذرُ من التأثر ببعض الكتب المتشددة، التي يَعْتَبِر كاتبوها كلَّ تأويل ضلالاً، وخطأً عقدياً، ومن أمثلة التأثر السيء بمثل هذه الكتب أنَّ شاباً سئل عمن يفسر الآية الكريمة: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ بقوله: أي الذي يتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء، فقال الشاب: هذا رجل معطل، مع أن هذا التفسير الذي لم يعجب ذلك الشاب هو كلام ابن كثير في تفسيره، وإذا بحثت في كلام الصحابة ﷺ والتابعين والمفسرين فلا تجد إلا مثل هذا الكلام الذي قاله ابن كثير من حيث المعنى، وإن اختلفت عباراتهم .

٥ – ما نقله ابن كثير عن الإمام أحمد بن حنبل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ أي جاء ثوابه [البداية والنهاية ١٠ / ٣٢٧] .

النقطة السابعة: معتمدنا في الأحكام والتوجيهات الدينية

بعد ما تقدم من منهج بناء الجوانب الأساسية في عقيدتنا لا بد لنا من أجل سلامة سلوكنا الديني أن يكون معتمدنا في الأحكام الشرعية والتوجيهات الدينية على آيات القرآن، وعلى ما صح عن رسول الله ﷺ ثم على ما استنبطه العلماء الراسخون في العلم من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ ويدخل في ذلك مسائل الإجماع، ونتائج القياس الشرعي الذي يصدر من أهله بشروطه، فالمعتمد عليه في الأحكام والتوجيهات الدينية **آيات القرآن الكريم، وما صح عن رسول الله ﷺ من الأحاديث، والإجماعُ، والقياسُ** .

النقطة الثامنة: لا اعتماد على الرؤيا الصالحة

عرفنا أنَّ الخاصة الأولى التي يتميز بها الأتباع الحقيقيون لرسول الله ﷺ هي أنهم على بصيرة في دينهم خلف رسول الله ﷺ .

ومن غَفَلَ عن هذه المزية العظمى فقد تحصل عنده تصورات وتصرفات في الدين يبنيها على الرؤيا، اعتماداً على الأحاديث الصحيحة، التي تبين أن الرؤيا الصالحة من الله تعالى .

والرؤيا لا يصح الاعتماد عليها في أي شيءٍ في موازين ديننا الحنيف، للأدلة التي تذكر في هذه النقطة بعد قليل .

أما أهل الاستقامة السائرون في طريق العلم والمعرفة، فإنهم لا يعتمدون في أمور العقيدة والغيب، ولا في الأحكام الشرعية والتوجهات الدينية، ولا في الأمور الدنيوية على الرؤيا وإن كانت صالحة، بل وإن كانت رؤيا رأى فيها أحدُهم رسولَ الله ﷺ وبصفاته الحقيقية الواردة في السنة، وإليك بعض كلام أهل العلم في ذلك .

قال النووي في المجموع:

فرع: لو كانت ليلة الثلاثين من شعبان، ولم ير الناس الهلال فرأى إنسان النبي ﷺ في المنام فقال له الليلة أول رمضان لم يصح الصوم بهذا المنام، لا لصاحب المنام ولا لغيره، ذكره القاضي حسين في **الفتاوى** وآخرون من أصحابنا، ونقل القاضي عياض الإجماع عليه، وقد قررته بدلائله في أول شرح صحيح مسلم .

ومختصرُه أن شرط الراوي والمخبر والشاهد أن يكون متيقظاً حال التحمل، وهذا مجمع عليه، ومعلوم أن النوم لا تيقظ فيه، ولا ضبط، فتُرك العمل بهذا المنام لاختلاط ضبط الراوي، لا للشك في الرؤية، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: من رآني في المنام فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي، والله تعالى أعلم.

[المجموع ٦/ ٢٨٤]

تعبير الرؤيا أمر ظني ولو صدر من العلماء الصالحين

ثم إنَّ الرؤيا وإن كانت صالحة فإن تأويلها ظني وإن كان من قبل عالم صالح، والدليل على ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقص عليه رؤيا، فقال أبو بكر ﷺ يا رسول الله بأبي أنت والله لَتَدَعَنِّي فَأَعْبُرَهَا فقال النبي ﷺ اعبرها، فعبرها ثم قال للنبي ﷺ : فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبت أم أخطأت؟ قال النبي ﷺ أصبتَ بعضاً وأخطأتَ بعضاً، قال فوالله لتحدثني بالذي أخطأتُ قال: لا تقسم .

[البخاري/ ٦٦٣٩ ومسلم / ٢٢٦٩]

فهذا أبو بكر ﷺ يصيب بعضاً ويخطئ بعضاً مع أنه كان من أعبر الناس للرؤيا بعد رسول الله ﷺ وقد استدل العلماء بهذا الحديث على أن العابر قد يخطئ وقد يصيب كما ذكر ابن حجر في فتح الباري **[فتح الباري ١٢ /٤٣٤ و ٤٣٨]** .

وقد تحدث ابن الصلاح في أدب المفتي والمستفتي ١/ ١٤٥عن الرؤيا الصالحة، وذكر من أمارات صلاحها أن يكون تبشيراً بالثواب على الطاعة أو تحذيراً من المعصية، ثم قال: **إن القطع على الرؤيا بكونها صالحة لا سبيل إليه إنما هو غلبة الظن** .

ونظير ذلك من حال اليقظة الخواطرُ، ومعلوم أن إدراك ما هو حق منها مما هو باطل وَعْرُ الطريق اهـ .

وقال الشاطبي في الموافقات ٢/ ٢٦٧: لو حصلت له مكاشفة بأن هذا الماء مغصوب أو نجس أو ما أشبه ذلك فلا يصح له العمل على وفق ذلك، ما لم يتعين سبب ظاهر، فلا يجوز له الانتقال إلى التيمم، فإن الظواهر قد تعين فيها بحكم الشريعة أمر آخر فلا يتركه اعتماداً على مجرد المكاشفة أو الفراسة كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية، ولو جاز ذلك لجاز نقض الأحكام بها وإن ترتبت في الظاهر موجباتها وهذا غير صحيح بحال .

وقال الشيخ زكريا الأنصاري في كتابه **لب الأصول** الذي اختصر فيه كتاب **جمع الجوامع** للسبكي: **ويقرب من الإلهام رؤيا المنام فمن رأى النبي ﷺ في نومه يأمره بشيء أو ينهاه عنه لا يجوز اعتماده مع أن من رآه فقد رآه حقاً، لعدم ضبط الرائي** .

[لُبُّ الأصول / ١١٨]

النقطة التاسعة : لا اعتماد على الإلهام

نبتعد في أمور العقيدة والغيب والأحكام الشرعية والتوجهات الدينية عن الاعتماد على الإلهامات؛ لأنَّ ذلك يتنافى مع الأسس المتينة لهذا الدين الحنيف .

لأنَّه من الأمور الأساسية في ديننا الحنيف أنه مبنيٌّ على العلم والمعرفة والإلهام ليس من أسباب العلم، وهذا النسفي رحمه الله تعالى بعد أن بين في الأسطر الأولى من كتابه المشهور بـ **العقائد النسفية** أسبابَ العلم للخلق، حذر من الاعتماد على الإلهام فقال: **والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق** اهـ.

والصحابة الذين هم خير هذه الأمة، والذين رباهم أعظم المربين ﷺ وهم أصح الناس إلهاماً وأكثرهم صفاءً وأطيبهم قلوباً وفيهم من شهد له رسولُ الله ﷺ بأنه ملهم لم يعتمدوا في يوم من الأيام على الإلهام في أمر من الأمور.

وهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: ((**قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنّ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ مِنْهُمْ**

» [البخاري/ ٣٢٨٢ مسلم / ٢٣٩٨] لم يكن هو ولا أحد من الصحابة يعتمدون على شيء من ذلك .

لقد اختلفت اجتهادات الصحابة ﷺ في ميراث الجد وفي تفسير الكلالة وفي مسائل من الربا، ومع ذلك لم يعمل الذي شهد له رسول الله ﷺ بأنه من المحَدَّثين لم يعمل في شيء منها بإلهام، وكان يتحسر على شيء فات بموت النبي ﷺ وهو أنه عليه الصلاة والسلام توفي ولم يبين هذه الأمور .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خطب عمر على منبر رسول الله ﷺ فقال: **إنه قد نزل تحريم الخمر وهي من خمسة أشياء العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل، والخمر ما خامر العقل، وثلاثٌ وددت أن رسول الله ﷺ لم يفارقنا حتى يعهد إلينا عهداً الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا** [البخاري / ٥٢٦٦ ومسلم / ٣٠٣٢] .

وإذا توهم أحد حصولَ العمل بانشراح الصدر من حديث قتال مانعي الزكاة الذي يقول فيه عمر ﷺ: « **فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ** » [البخاري/ ١٣١٢ مسلم / ٢٩] قلنا له: هذا الفهم غير صحيح، والصواب أن معرفته كانت بسبب الدليل الذي ذكره الصديق ﷺ لا بسبب انشراح الصدر، كما قال النووي في شرح مسلم: معنى قوله: «**عرفت أنه الحق** » أي بما أظهر من الدليل وأقامه من الحجة، فعرفت بذلك أن ما ذهب إليه هو الحق، وكذلك ابن حجر في الفتح يقول: «**عرفت أنه الحق** » أي ظهر له من صحة احتجاجه اهـ .

والاعتماد على الإلهام في أمر من الأمور مخالف لهدي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء /٣٦] وهو ابتعاد عن هدي رسول الله ﷺ وما ربَّى عليه أصحابه ﷺ، وهو ابتعاد أيضاً عن طريق الحق وسيرٌ في طريق الباطل .

وقد نقل ابن حجر رحمه الله تعالى عن أبي المظفر السمعاني في كتابه قواطع الأدلة رَدَّه على المبتدعة في زعمهم أن الإلهام حجة فقال: وعن بعض المبتدعة أنه حجة واحتج بقوله تعالى: ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ [الشمس/ ٨] .

قال: وحجة أهل السنة الآياتُ الدالَّةُ على اعتبار الحجة، والحثُ على التفكر في الآيات والاعتبار والنظر في الأدلة، وبأن الخاطر قد يكون من الله وقد يكون من الشيطان وقد يكون من النفس، وكلُّ شيءٍ احتَمل أن لا يكون حقاً لم يوصف بأنه حق .

قال: والجواب عن قوله: ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ أن معناه عَرَّفَها طريقَ العلمِ وهُوَ الحُجَجُ، اهـ [**فتح الباري ١٢/ ٣٨٨ وقواطع الأدلة ٢/ ٣٤٨ وما بعدها**] .

وقد تفطن أهل العلم من علماء العقيدة والفقه وأصول الفقه لخطورة مثل هذه الدعوى، وحذروا منها أشد التحذير، حتَّى حكموا بِرَدِّ شهادة من يعتمد على الإلهامات .

لا تقبل شهادة من يعتمد على الإلهام

وقد تقدم معنا قول الإمام النسفي في أول كتابه المسمى بـ **العقائد النسفية** : **والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق** اهـ .

وقال السرخسي في **المبسوط**: **وكذلك من يعتقد أن الإلهام حجة موجبة للعلم لا تقبل شهادته لأن اعتقاده ذلك يُمَكِّنُ تهمة الكذب، فربما أقدم على أداء الشهادة بهذا الطريق** اهـ [١٦ / ١٣٣] .

وقال مثل ذلك في كتاب الأصول [١ / ٣٧٣] .

ومثله البزدوي في كتاب الأصول أيضاً [/ ١٧٩] .

وقال الكاساني في بدائع الصنائع: **وكذا لا عدالة لأهل الإلهام لأنهم يحكمون بالإلهام فيشهدون لمن يقع في قلوبهم أنه صادق في دعواه، ومعلوم أن ذلك لا يخلو عن الكذب** اهـ [٦ / ٢٦٩] .

وقال صاحب البحر الرائق: وفي التقرير: **ويلحق بهم صاحب الإلهام فلا تقبل شهادته** اهـ [٧ / ٩٣] .

وقال ابن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج ٩/ ٨٩: **وهو – أي الإلهام – ليس بحجة عند الأئمة، إذ لا ثقة بخواطر من ليس بمعصوم .**

وقال السبكي في جمع الجوامع: مسألة: **الإلهام إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر يخص به الله تعالى بعض أصفيائه، وليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوماً بخواطره** اهـ قال المحلي في شرحه: **لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان فيها .**

وقال العطار في حاشيته: **والحق كما قال صاحب متن العقائد النسفية: والإلهام ليس من أسباب المعرفة** [البناني على المحلي على جمع الجوامع٢/٣٥٦، وحاشية العطار٢/٣٩٨] .

وقال الشيخ زكريا الأنصاري عن الإلهام في كتابه الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة ص ٦٨ : **وليس بحجة من غير معصوم** (٢١) .

النقطة العاشرة: التحذير من تكفير المسلم لأخيه

لا شك أن من أنكر جانباً من الجوانب الإيمانية التي يعرفها عامَّةُ المسلمين وعلماؤُهم، كإنكار نبوَّةِ نَبِيٍّ ممن ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم، أو سبَّ الله تعالى أو نبيَّاً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو ارتكب مكفراً من المكفرات التي أجمع علماء المسلمين عليها فهو كافر ولا خيار لمسلم في تكفيره .

ولكنَّ جانباً من أقبح جوانب الانحراف عن الصراط المستقيم قد وُجد في الأمة وهو تكفير المسلم لأخيه .

---

(٢١) أكثرت من هذه النقول التي يكفي بعضُها لتقاوم ما استقر عند كثير من الإخوة من الاعتماد على الإلهام أو على ما يتوهمون أنه إلهام من الكهانة وادعاء علم الغيب .

ومن أقبح الفتن الشنيعة التي ظهرت في عصرنا ما جدد به بعض أبناء أمتنا فتنةَ الخوارج في تكفيرهم للمسلمين اعتماداً على شبهاتٍ قامت في أذهانهم، وأهواءٍ ملكت قلوبهم، وعواطفَ غلبت عقولهم .

وأهلُ الحق الذين تمسكوا بسنة النبي ﷺ وبما كان عليه الصحابة ﷺ والتابعون والأئمة المجتهدون لا يكفرون مسلماً إلا إذا قام الدليل القطعي على كفره .

ومما يعتمدون عليه من الأسس العلمية أنهم يردون معاني الأدلة المشتبهة إلى معاني الأدلة المحكمة، مستنيرين بعلم وفهم من سبقهم من الراسخين في العلم .

وهذا التكفير قد حذر منه النبي ﷺ أشدَّ التحذير في أحاديث كثيرة منها :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ ((**أيما امْرِئٍ قالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أحَدُهُما إنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإلا رَجَعَتْ عَلَيْهِ**)) .

[البخاري / ٥٧٥٣ ومسلم / ٦٠]

وعن ثابت بن الضَّحَّاك ﷺ قال: قال النبي ﷺ ((**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ مِلَّةِ الإسْلامِ فَهُوَ كَمَا قَالَ: قَالَ: وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ رَمَى مُؤْمِناً بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ**)) **[البخاري / ٥٧٠٠]** .

ومن القواعد التي يعتمدها أهل الحق في هذا الأمر:

١ – عدم تكفير المسلم بارتكاب الكبائر والموبقات وإن وصفت تلك الموبقات في الأحاديث بأنها كفر كحديث: ((**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**)) .

[البخاري / ٤٨ ومسلم / ٦٤]

فمن قاتل أخاه ظلماً وبغياً قتالاً غير مشروع ولم يستحل ذلك فقد ارتكب جريمة من أبشع الجرائم وُصفت في هذا الحديث بأنها كفر، وكذلك في حديث: ((**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**)) **[البخاري/١٢١ومسلم/٦٥]** .

ولكنَّ أهل الحق لا يكفرونه، ويَحملون الكفر في هذه الأحاديث على كفر النعمة، أو على الاتصاف بصفات الكفار، لأنه قد قامت عندهم الأدلة على عدم كفر المقاتلين لإخوانهم وإن كان هؤلاء المقاتلون من البغاة الظالمين؛ لأدلة متعددة منها

قوله تعالى: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ **[الحجرات ٩و١٠]** .

وقد ذكر ابنُ عبد البر في التمهيد ٤ / ٢٣٦ و٢٣٧ أنه صح عنه ﷺ أنه قال: « **سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ** » وقال: « **لا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ** » وقال « **لا تَرْغَبُوا عَنْ آبائِكُمْ فإِنَّهُ كُفرٌ بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ** » وقال: « **لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ** » إلى آثار مثل هذه .

وذكر أنه لا يُخرِج بها العلماءُ المؤمنَ من الإسلام، وإن كان بفعل ذلك فاسقاً عندهم .

قالوا ومعنى قوله: « **سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ** » إنه ليس بكفر يخرج عن الملة، وكذلك كلُّ ما ورد من تكفير من ذكرنا ممن يضرب بعضهم رقاب بعض ونحوِ ذلك .

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في حكم الحاكم الجائر: **كفر دون كفر** .

ثم روى ابن عبد البر بسنده عن سفيان بن عيينة عن هشام بن حُجَيْرٍ عن طاوس قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: **ليس بالكفر الذي تذهبون إليه، إنه ليس بكفر ينقل عن الملة** ثم قرأ: ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ .

[وأخرجه الحاكم / ٣٢١٩ وصححه وأقره الذهبي]

وقالوا يحتمل قوله ﷺ : **لا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ، يريد مستكمل الإيمان لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وكذلك السارق وشارب الخمر ومن ذكر معهم .

وعلى نحو ذلك تأولوا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : **لا حظَّ في الإسْلامِ لِمَنْ تَـرَكَ الصَّـلاةَ،** قالوا أراد أنه لا كبير حظ له، وما أشبهه وجعلوه كحديث: « **لَيْسَ**

الْمِسْكِينُ بالطَّوَّافِ عَلَيْكُمْ)) يريد ليس هو المسكين حقاً لأن هناك من هو أشد مسكنة منه وهو الذي لا يَسْأَلُ ونحو هذا اهـ [التمهيد ٤/ ٢٣٦ و٢٣٧] .

٢- أن المسلم إذا عمل عملاً يَحْتَمِلُ الكفر ويَحْتَمِلُ غيرَ الكفر حُمِل على أخف الاحتمالات وقُبِلَ تفسيرُه هو لهذا العمل، وللدافع الذي دفعه إليه، ولا تجوز المبادرة إلى الحكم عليه بالكفر بعمله الذي يحتمل الكفر وغيره، وإن غلب على الظن أنه قد فعله كفراً وارتداداً عن دينه .

ونستضيء في هذا الأمر المهم ببعض كلام الراسخين في العلم في هذه القاعدة .

قال في الأم: قيل للشافعي: أرأيت المسلم يكتب إلى المشركين من أهل الحرب بأن المسلمين يريدون غزوهم أو بالعورة من عوراتهم هل يُحل ذلك دمه ويكون في ذلك دلالة على ممالأة المشركين؟

قال الشافعي رحمه الله تعالى: لا يحل دم من ثبتت له حرمة الإسلام إلا أن يَقْتُلَ، أو يَزْنِيَ بعد إحصان، أو يكفر كفراً بيّناً بعد إيمان، ثم يَثْبُتَ على الكفر، وليس الدلالةُ على عورة مسلم ولا تأييدُ كافر ...... بكفرٍ بَيِّنٍ .

فقيل للشافعي: أقلت هذا خبراً أم قياساً؟ قال: قلته بما لا يسع مسلماً - عَلِمَهُ عندي - أن يخالفه، بالسنة المنصوصة بعد الاستدلال بالكتاب .

فقيل للشافعي فاذكر السنة فيه، فذكر الشافعي حديث حاطب بن أبي بلتعة ﵁ الذي كتب إلى المشركين يخبرهم بخروج رسول الله ﷺ بجيشه لفتح مكة وأنزل الله تعالى في شأنه ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ** .... ﴾ [الممتحنة/ ١] وعندما سأله النبي ﷺ: ما هذا يا حاطب؟ أخبره أنَّه أراد أن يتخذ عند قريش يداً يحمي بها قرابته، وأنه ما فعل ذلك شكاً في دينه، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، وذكر الشافعي أن النبي ﷺ صدقه.

ثم قال الشافعي رحمه الله تعالى: في هذا الحديث - مع ما وصفنا لك - طرحُ الحكم باستعمال الظنون، لأنه لما كان الكتاب يَحْتَمِلُ أن يكون ما قال حاطبٌ كما

قال من أنه لم يفعله شاكاً في الإسلام وأنه فعله ليمنع أهله، ويَحْتَمِلُ أن يكون زلةً لا رغبة عن الإسلام، واحتمل المعنى الأقبحَ – وهو الكفر – كان القولُ قولَه فيما احتَمَل فعلُه، وحَكَمَ رسولُ الله ﷺ فيه بأن م يقتله .

ثم ذكر الشافعي رحمه الله تعالى شدَّةَ قُبح ما فعله حاطب رضي الله عنه وأنه لا أحدَ أتى في مثل هذا الأمر أعظمَ – في الظاهر – مما فعله حاطب [٢٢]؛ لعظمة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(٢٢) وإذا قال الشافعي ذلك فيما فعله حاطب رضي الله عنه فإني أقول فيما يفعله بعض المجرمين في زماننا: لا أعرف ذنباً يرتكبه مسلم في هذا العصر أعظمَ مما فعله ويفعله بعض المسلمين من مساعدة أعداء الأمة الإسلامية في حربهم لأمتنا وغزوهم لبلاد المسلمين، ومع هذا لا يجوز لنا أن نُكَفِّرَ هؤلاء الذين يخونون اللهَ ورسولَه والأمةَ، وليس ذلك شفقةً على هؤلاء المجرمين الخائنين، ولكنَّ ذلك شفقةٌ على أنفسنا؛ لأننا إذا كَفَّرْناهم صِرْنا مجرمين مثلهم .

ونذكر في هذا ما رواه الحسن بن علي عن عليٍّ رضي الله عنهما أنه سئل عن الخوارج الذين يحاربونه: أكفارٌ هم؟ قال: مِنَ الكفر فَرُّوا، قيل: فمنافقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً، قيل: فما هم؟ قال قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها .

[مصنف عبد الرزاق ١٠ / ١٥٠]

وإذا ظنَّ أحد بأن قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ يقتضي أنهم صاروا كفاراً فإنَّ هذ الظن غيرُ صحيح لأنَّ التَّوَلِّي نوعان:

الأول: من يتولاهم في دينهم، وهذا يجعله منهم كافراً لمشاركته لهم في الكفر.

الثاني: من يتولاهم في معونته لهم على الظلم، وهذا يجعله مثلهم في المعصية .

قال ابن الجوزي في تفسيره: قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ فيه قولان:

أحدهما: من يتولهم في الدين فانه منهم في الكفر .

والثاني: من يتولهم في العهد فانه منهم في مخالفة الأمر اهـ [**زاد المسير ٢ / ٣٧٨**] .

وقال الألوسي: وقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ أى من جملتهم، وحكمه حكمهم، وهو مُخْرَجٌ مَخْرَجَ التشديد والبالغة فى الزجر؛ لأنه لو كان المتولي منهم حقيقةً لكان كافراً، وليس بمقصود اهـ [**روح المعاني ٦ / ١٥٧**] .

ثم ذكر أنه إذا حدث مثلُ هذا بعد رسول الله ﷺ وادَّعى فاعلُ ذلك مثلَ ما ادعاه حاطب رضي الله عنه قُبِلَ منه، وكان قبولُه أولى لأن شأن غيره ﷺ أقلُّ من شأنه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه اهـ باختصار .

[الأم ج ٤ ص ٢٥٠ و٢٥١ طبع دار المعرفة وص ٢٦٣ و٢٦٥ طبع دار الفكر]

وقال في **البحر الرائق**: وفي **جامع الفُصُولَيْنِ** روى الطحاوي عن أصحابنا:

لا يُخرِجِ الرجلَ من الإيمان إلا جحودُ ما أدخله فيه، ثم ما تُيُقِّنَ أنه ردة يحكم بها، وما يُشك أنه ردة لا يحكم بها، إذ الإسلام الثابت لا يزول بشك .

وفي **الخلاصة** وغيرها: **إذا كان في المسألة وجوه توجب التكفير ووجه واحد يمنع التكفير فعلى المفتي أن يميل إلى الوجه الذي يمنع التكفير تحسينا للظن بالمسلم .**

وفي **التتارخانية**: **لا يكفر بالمحتمِل لأن الكفر نهاية في العقوبة فيستدعي نهاية في الجناية ومع الاحتمال لا نهاية** اهـ [البحر ٥ / ١٣٤].

ثم قال صاحب **البحر**: **والذي تحرر أنه لا يُفْتَى بتكفير مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان في كفره اختلاف** اهـ [البحر ٥ / ١٣٥] .

وقد ذهب أهل العلم إلى أبعد من هذا فقالوا: لو فعل ذمي مثل فعل حاطب رضي الله عنه لم يكن ذلك نقضاً لعهده .

قال السرخسي في **المبسوط** يتحدث عن الذمي: **فإن صار ذمة ثم وقفتَ منه على أنه يُخْبِرُ المشركين بعورة المسلمين ويَقْرِي عيونَهُم لم يكن هذا منه نقضاً للعهد، ولكن يعاقب** [المبسوط ١٠/ ٨٥] .

وقال الشافعي . ضِمْنَ بحثٍ قرر فيه أنه لا يجوز أن يُحكم على إنسان إلا بما يُظهر: **وفي جميع ما وصفت دليلٌ على أن حراماً على حاكم أن يقضيَ أبداً على أحد من عباد الله إلا بأحسنِ ما يُظهر وأخَفِّهِ على المحكوم عليه وإن احتمل ما يُظْهِرُ أحسنَه غيرَ أحسنِه .**

ثم قال: **فمن حكم على الناس بخلاف ما ظهر عليهم – استدلالاً على أن ما أظهروا يَحتملُ غيرَ أحسنه بدلالة منهم أو غير دلالة لم يسلم عندي من خلاف التنْزيل والسنة** اهـ [الأم ٧ / ٢٥٠ و٢٥١ طبع دار المعرفة و٧/ ٣١١ و٣١٢ طبع دار الفكر] .

٣ – أنَّه لا يحكم في الأمور التي تقتضي الكفر بلا احتمال ولا خلاف فيها إذا صدرت من مسلم لا يحكم فيها بكفره إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، فالذي نطق بكلمة الكفر بإكراهٍ أو سبقِ لسانٍ مثلاً لا يُحكم بكفره، لوجود مانع وعدم تحقق الشروط .

لا يجوز الخروج على إمام المسلمين إلا بكفر واضح لا يحتمل التأويل

ويرتبط بما تقدم أنَّ علماء أهل السنة قرروا أنه لا يجوز الخروج على الحاكم بارتكابه لكبائر الذنوب، ولا يُحكم عليه بالكفر إلا إذا كفر كفراً واضحاً ظاهراً لا خلاف فيه بين أهل العلم .

واستدلوا بحديث الصحيحين عن جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت ﷺ وهو مريض فقلنا أصلحك الله حدث بحديث ينفع الله به سمعتَه من رسول الله ﷺ قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه فقال فيما أخذ علينا أن بايعَنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله قَالَ: ((**إلاّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**)) .

[البخاري / ٦٦٤٧ومسلم / ١٧٠٩]

قال في فتح الباري: قوله (**إلا أن تروا كفراً بَواحاً**) بموحدة ومهملة، قال الخطابي: معنى قوله بواحاً، يريد ظاهراً بادياً من قولهم باح بالشيء يبوح به بوحاً وبواحاً إذا أذاعه وأظهره .

قوله: **عندكم من الله فيه برهان،** أي نصُّ آيةٍ أو خبرٌ صحيحٌ، معناه واضحٌ لا يحتمل التأويل، ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل اهـ .

الفصل الثالث

في التقليد والاجتهاد

الاجتهاد في الأحكام الشرعية أمر عظيم، ولا يصح لكل طالب علم أن يكون مجتهداً، لأنه لا بد فيمن يُقْدِمُ على الاجتهاد أن يكون أهلاً لذلك، بأن تتحقق فيه أمور:

بعض شروط المجتهد

منها العلم بما يتعلق بالأحكام من كتاب الله تعالى .

ومنها العلم بما يتعلق بالأحكام من سنة رسول الله ﷺ .

ومنها أن يعرف من كتاب الله تعالى ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخاص والعام، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك من أبواب أصول الفقه .

ومنها أن يعرف من السنة المتواترَ والآحادَ، والمرسل والمسند والمتصل والمنقطع، وحال الرواة جرحاً وتعديلاً، وغير ذلك مما يتعلق بعلم الحديث الذي يُمَكِّنُهُ من التمييز بين الصحيح والسقيم من الروايات .

ومنها أن يعرف أقاويل علماء الصحابة فمن بعدهم إجماعاً واختلافاً .

ومنها أن يعرف القياس وشروطه وعِلَلَهُ وأنواعه، وما يرتبط بذلك، وأن يُمَيِّزَ صحيحه من فاسده .

ومنها أن يعرف لسان العرب لغةً وإعراباً وبلاغة .

وأن يعرف ما يرتبط بجميع ما تقدم مما له تعلق بالمسألة التي يجتهد فيها .

هذا وإنَّ التقليد والاجتهاد أمران تحكمهما قواعدُ وضوابطُ شرعيةٌ .

فما كان موافقاً لتلك الضوابط والقواعد كان موافقاً للشرع، وإلا فليس مشروعاً، ومن أهم هذه الضوابط النقاط التالية:

النقطة الأولى : ما لا يصح فيه الاجتهاد

لا تقليد ولا اجتهاد في المسائل التي فيها آيةٌ قرآنيةٌ أو حديثٌ صحيحٌ إذا كانت دلالةُ الآية أو الحديثِ الصحيحِ واضحةً، ولا يعارض الآيةَ أو الحديثَ الصحيحَ دليلٌ آخرُ، فمثل هذه الأحكام لا يجتهد فيها العلماء، إذ لا رَأْيَ لأحد مع حكم رسول الله ﷺ .

النقطة الثانية : المسائل التي يكون فيها الاجتهاد

يكون الاجتهاد سائغاً في أنواع الأحكام التالية :

١- المسائل التي لا آية فيها ولا حديث، ويكون الاجتهاد هنا عن طريق القياس، فإذا أراد العلماء معرفة حكمِ بيعِ العدسِ بالعدسِ أو بيعِ الحديدِ بالحديدِ متفاضلاً لم يجدوا آية ولا حديثاً، وحينئذ لا بد لهم من القياس .

٢- المسائل التي فيها آية أو حديث صحيح، ولكن الدلالة فيهما لها احتمالات مختلفة، فعدة المطلقة ثلاثة قروء، والقَرءُ في اللغة يَحْتَمِلُ الحيضَ ويَحْتَمِلُ الطهر، فإذا طلقها في الطهر ومضى عليها طُهْران آخران فقد تم لها ثلاثة أطهار، ولم يمض عليها إلا حيضتان، فانتهاء عدتها في هذه الحالة أو عدم انتهائها لا يحدد إلا باجتهاد .

٣- المسائل التي فيها آية أو حديث، تُعارِضُ الدلالةَ فيهما آيةٌ أخرى أو حديث آخر، فمن المحتمل أن يكون في المسألة نسخٌ، أو تخصيصٌ لعام، أو تقييدٌ لمطلقٍ، أو وجهٌ آخرُ من وجوه الجمع بين الأدلة التي ظاهرها التعارض .

وقد ذكر الحازمي نحواً من خمسين وجهاً من وجوه الجمع بين الأدلة التي ظاهرها التعارض في أول كتابه **الاعتبار** في بيان الناسخ والمنسوخ .

وبسبب الغفلة عن هذه النقطة المهمة يُخْطِئُ كثيرٌ من الإخوة عندما يأخذون حكماً من حديث قبل أن يتبين لهم احتمالُ الحديث لأكثر من معنى، أو وجودُ ما

يعارض هذا الحكمَ من الأدلة .

ومِنَ الأمثلة في هذا ما وقع فيه بعض الإخوة حيث تَسَرَّعُوا وأخذوا من حديث الإمام أحمد وأبي داود عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: ((**إذَا سَمِعَ أحَدُكُمُ النّدَاءَ وَالإنَاءُ عَلَى يَدِهِ فَلاَ يَضَعْهُ حَتّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ مِنْهُ**)) جوازَ الأكل والشرب عند أذان الصبح وإن طلع الفجر .

فالتَّسَرُّعُ في أخذ هذا الحكم الاجتهادي من الحديث قبل البحث عن الاحتمالات الممكنة في هذا الحديث وعما يعارضُ ظاهرَهُ من الأدلة الأخرى خطأٌ يحذر من الوقوع في مثله الموفقون .

ومن الأدلة التي تعارض ظاهرَ هذا الحديثِ مفهومُ قوله تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**﴾ [البقرة / ١٨٧] ومفهومُها إذا تبين الفجر فلا تأكلوا ولا تشربوا .

ويعارضُ ظاهرَ هذا الحديثِ أيضاً حديثُ: الصحيحين: ((**إنّ بِلاَلاً يُؤَذّنُ بِلَيْلٍ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتّى يُؤَذّنَ ابْنُ أُمّ مَكْتُومٍ، قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا إلا أَنْ يَنْزِلَ هَذَا وَيَرْقَى هَذَا**))، وهو موافقٌ لمفهوم الآية القرآنية، ومن المعلوم أن ابن أم مكتوم ﷺ لا يؤذن حتى يتبين الفجرُ .

وقد اجتهد المحققون في هذه المسألة، ولم يأخذوا بظاهر هذا الحديث، وجمعوا بينه وبين ما يخالفه من الأدلة، وهذا شأنهم فيما يشبه ذلك من الأدلة .

وقد ذكر الخطابي في معالم السنن عند شرحه لحديث أبي داود هذا وجهين للجمع بين ما يُظَنُّ من تعارض الأدلة في هذا الأمر:

الأول: أنَّ حديث: ((**إذَا سَمِعَ أحَدُكُمُ النّدَاءَ وَالإنَاءُ عَلَى يَدِهِ فَلاَ يَضَعْهُ حَتّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ مِنْهُ**)) محمول على الأذان الذي كان يقوم به بلال ﷺ قبل الفجر .

الثاني: أنَّ الحديث محمول على ما إذا سمع الأذان وهو يشك في الصبح مثل أن تكون السماء فيها غيم فلا يقع له العلم بأذانه أن الفجر قد طلع لعلمه أن دلائل الفجر معدومة، ولو ظهرت للمؤذن لظهرت له أيضاً (٢٣) **[معالم السنن ٢/٩١]** .

ونقل في عون المعبود عن مُلا علي القاري: قوله ﷺ « **حتى يقضي حاجته منه** » هذا إذا علم أو ظن عدمَ الطلوع **[عون المعبود ٦/ ٣٤٢]** .

النقطة الثالثة : من سعة التشريع أنه يجوز للمجتهد أن يقلد .

المعروف في أصول الفقه أنَّ من وُجِدَتْ فيه أهليةُ الاجتهاد وجب عليه أن يجتهد، ولا يجوز له أن يقلد، وهذا رأيٌ وجيهٌ يسهل قبوله، ولو رجع طالب العلم إلى البحث في أدلته لرأى أنَّ الأمر فيه سعة، وأنَّ هناك اتجاهاً فقهياً آخرَ لَهُ أدلته أيضاً .

فقد ذكر ابن عبد السلام في قواعد الأحكام اختلافَ العلماء في تقليد الحاكم المجتهدِ لمجتهدٍ آخرَ، وأن بعضهم أجازه، وذكر مما يؤيد هذا القول أنه إذا جاز للمجتهد أن يعتمد على ظنه المستفاد من أدلة الشرع فَلِمَ لا يجوز أن يعتمد على ظنِّ مجتهدٍ آخر معتمدٍ على أدلة الشرع، ولا سيما إذا كان المجتهدُ المقَلَّدُ أنبل وأفضل في معرفة الأدلة الشرعية اهـ **[قواعد الأحكام ٢/ ٢٧٥- ٢٧٦]** .

فإذا كان المجتهد الذي تحققت عنده شروط الاجتهاد في فسحة من ترك الاجتهاد، ويسعه أن يقلد المجتهدين أفلا يسع من لم تكتمل أهلية البحث عندهم ولم تتحقق عندهم أهلية الاجتهاد (٢٤) أن يقلدوا الراسخين في العلم لِيَسْلَمُوا من شرور اجتهاداتهم ويسلمَ مَن اغترَّ بِهِمْ فَحَسِبَهُمْ أهلاً للاجتهاد .

---

(٢٣) هذا الحكم لا يناسب عصرنا بسبب وجود آلات ضبط الوقت [الساعات]

(٢٤) من الصفات التي تصيب الإنسان أحياناً أنه قد يجد في نفسه بعض جوانب القوة التي كان يفقدها فيستعظم ما حصل عنده ويستكبره فيصيبه بذلك جانب من الغرور فيظن أنه أهل لأمور ليس هو أهلاً لها، بل ربما ظن أهليته أقوى ممن عندهم أضعاف ما عنده من القوة فيزداد غروره .

النقطة الرابعة : لا يجوز لمن قَصُرَ عن أهلية الاجتهاد أن يجتهد .

إنَّ كلام العالم وطالب العلم في الدين من أخطر ما ابتلي به الإنسان، وخصوصاً عندما يضاف إلى ذلك ما إذا كان لكلامه قبولٌ عند الناس، فيقبلون كلامه على أنه دين الله تعالى، وهذا ما جعل الصالحين من أهل العلم وفي مقدمتهم الصحابة الذين رباهم النبي ﷺ يتهربون من الفتوى ما دام هناك من يفتي من المؤَهَّلِيْنَ للفتوى، بل يتهربون من الرواية ما دام هناك من يروي ويُحَدِّثُ من المؤهلين للرواية .

انظر إلى ما وصف به التابعيُّ الجليل عبدُ الرحمن بنُ أبي ليلى الصحابةَ ﷺ حيث قال: « **لقد أدركت في هذا المسجد عشرين ومائة من الأنصار وما منهم من أحد يحدث بحديث إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه الحديث، ولا يُسألُ عن فُتيا إلا وَدَّ أن أخاه كفاه الفُتيا** » **[سنن الدارمي ١/ ٦٥ والثقات لابن حبان ٩/ ٢١٥ والتلخيص الحبير ٤/ ١٨٧]** .

يستطيع كلُّ مسلم حريصٍ على الخير أن يتكلم بالخير ويدعو إليه مدة عمره كلها في الأمور المتفق عليها من أسس ديننا الحنيف وفروعه، مما لا خلاف فيه، ويبني على ذلك الخير الكثير، ويرضي بذلك ربه سبحانه وتعالى .

أما أمور الاجتهاد التي يختلف فيها المجتهدون، أو الأمور التي تلتبس على العامة مما يجب فيه الرجوع إلى أصحاب الشأن، فلا يجوز أن يتجرأ على الكلام فيها إلا من كان أهلاً لذلك، فإن أقدم على ذلك من لم تتحقق أهليته فإنه عاصٍ لربه بعيدٌ عن التقوى، ويكون من الذين لا يعظمون شعائر الله تعالى [٢٥] .

لكنه يستطيع أن ينقل اجتهاد بعض المجتهدين لمن يحتاج إليه، مراعياً يسر التشريع في جواز تقليد أيِّ مجتهد مؤهلٍ للاجتهاد .

---

(٢٥) من البعد عن التوفيق أن يترك الإنسان الدعوة إلى الخير في الأمور المتفق عليها، ويشتغل بالأمور المختلف فيها مما ليس أهلاً للخوض فيها لقلة علمه، وأبعد من ذلك عن الخير انشغاله بما يتنازع فيه الناس من المسائل .

مما أنْصَحُ به تقليد مذهب معين مع عدم التعصب والسعي لمعرفة الأدلة

وإني أنصح طلاب العلم بتقليد مذهبِ إمامٍ من المذاهب الفقهية قد حُرِّرَ مذهبه ومُحِّصَتْ أقواله المعتمدة المحررة الثابتة دون تعصب مع السعي لمعرفة الأدلة، ولاحرج في الخروج إلى مذهب معتمد آخر ولو في بعض المسائل، ومن ظن أن الأخذ بقول إمام آخر في مسألةٍ ما فيه حرج فقد خالف منهج الأئمة المجتهدين وأتباعهم من المحققين .

ويكثر في طلبةِ العلم الذين لم يقلدوا مذهب إمامٍ على النهج الذي ذكرتُه أن يكون أحدهم على إحدى الحالات التالية:

أ- أن يجتهد وليس أهلاً للاجتهاد .

ب - أن يرجح بين الأقوال وليس أهلاً للترجيح .

ج - أن يتبع متكلماً في الدين معاصراً يجتهد ويرجح، وربما ألف بعض الكتب ولكنه لم تتحقق فيه الأهلية .

وجميع هذه الحالات موجودة كثيرة في عصرنا .

فهل يكون على إحدى هذه الحالات، أم يقلد الأئمة المجتهدين الذين اتفقت الأمة على أهليتهم، ودُوِّنت مذاهبهم وحررت، وسار على كلٍّ منها آلاف العلماء على تتابع العصور اتِّباعاً علمياً دون تعصب مع السعي لمعرفة الأدلة .

ليس تقليد مذهب معين من بدع الضلالة

هل يصح تقليد إمامٍ مجتهدٍ مُعَيَّن ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال أرى من المناسب أن أعرض بعض الاعتراضات على تقليد إمام مجتهد مُعَيَّنٍ ليكون الجواب من خلالها .

يمكن للباحث في هذه المسألة أن يتساءل فيقول:

١ - **أليس تقليد مذهب إمام معينٍ مخالفاً لما كان في عصور السلف، أليس تقليد مذهب معين بدعة،** لأنَّ المستفتي كان يسأل من تيسر له سؤاله من العلماء، فالمقلدون مبتدعون، والإسلام نهى عن الابتداع في الدين .

٢ - **ويقول: أليس الأئمة المجتهدون كانوا ينهون عن تقليدهم .**

وهذا التساؤل مهم ولا بد من الإجابة عنه فيما يلي:

أما قولهم الأول فهو صحيح، ولكنَّ مخالفة ذلك الحال لا حرج فيها

لأنه لا دليل من الشرع يمنعها، وإن تقليد الجاهل لعالم مجتهد في مسألة كتقليده في مسائل كثيرة، ولو أن عالماً من الصحابة ﷺ أو من التابعين عَلَّمَ جاهلاً أحكام الطهارة والصلاة لدخل فيما علمه من أحكامهما جميعُ المسائل الاجتهادية التي يقول بها ذلك العالم المجتهد ولما أنكر على ذلك أحد .

ولو أن رجلاً منهم حصر أسئلته في عالم واحد لما كان عليه في ذلك حرج في دينه، ويكون في ذلك مقلداً لإمام مجتهد واحد .

وقد سار على تقليد الأئمة المجتهدين معظم علماء الأمة في كل العصور الماضية، يظهر ذلك بمطالعة قصيرة لكتب طبقات الفقهاء .

ومن اجتهد من هؤلاء العلماء فإن اجتهاده لا يكون إلا في مسائل قليلة يخالف فيها إمامه ليصل في الغالب إلى رأي إمام آخر من المجتهدين، ولا يكون ذلك منهم إلا في المسألة التي رأى أنه أهل للاجتهاد فيها وترجح عنده فيها بقوة الأدلة رأيٌ آخر .

ويضاف إلى ذلك أنَّ لعصر الصحابة والتابعين مزايا ليست موجودة في عصرنا، ومن أهمها:

أنَّ العلماء الذين هم أهل للاجتهاد والفتوى في ذلك العصر كثيرون، بخلاف عصرنا، وإذا نظر من يستضيء بجانب مهم من أنوار العلوم الشرعية إلى المجتمعات الإسلامية في هذا العصر فإنه يصعب عليه أن يجد من هو أهل للاجتهاد المطلق، وربما وَجَدَ عند بعض أهل العلم قدرةً على الاجتهاد في مسألة جزئية .

ولكنه يرى كثيراً ممن يَظنُّ في نفسه أنه أهل للاجتهاد ولكنه ليس كذلك .

وأنَّ علماء عصر الصحابة ﷺ والتابعين كانوا ربَّانيِّين تغلبهم خشية الله تعالى فتمنعهم من الجرأة على الفتوى، تعظيماً منهم لشعائر الله تعالى .

وقد رأوا أن هذه الجرأة تتنافى مع تعظيم تلك الشعائر، ورأوا أنَّ الفتوى في دين الله تعتبر تبليغاً عن الله تعالى وتوقيعاً عنه، وقد تحققوا بهذه الخشية وعملوا بما عرفوه من تحريم القول على الله تعالى دون علم، متعظين بقوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف/٣٣] .

ولننظر إلى حال الصحابة ﷺ يصفهم التابعي الجليل عبد الرحمن بن أبي ليلى بقوله: **لقد أدركت في هذا المسجد عشرين ومائة من الأنصار وما منهم من أحد يحدث بحديث إلا وَدَّ أن أخاه كفاه الحديث ولا يسأل عن فتيا إلا وَدَّ أن أخاه كفاه الفتيا .**

[سنن الدارمي ١/ ٦٥ والتلخيص الحبير ٤ / ١٨٧]

وهكذا كان شأن التابعين وأتباعهم .

أما في هذا العصر فقد غلبت الغفلة عن هذا الخُلق العظيم على كثير من المتحدثين في الدين وقَلَّتْ عندهم الخشيةُ، وزادت عندهم الجرأة على التكلم فيما ليس لهم به علم من أمور هذا الدين، وكثر الكاتبون في الإسلام والمفتون فيه ممن لا أهلية عندهم .

وكثر فيه من يتجرأ على الفتوى في أمور المسلمين الخاصة والعامة مما لا يتجرأ على الفتوى في مثلها سيدُنا عمر بن الخطاب ﷺ [٢٦] .

وقد كثر فيما يتكلم به كثير من أهل عصرنا نَبْشُ الأقوال الشاذة الضعيفة التي كان عامة العلماء يعرضون عنها، ويخشون من إشاعتها، حتى صارت بعض تلك الأقوال طافية على ساحة الكلام الديني، واصلةً إلى آذان كثير من المسلمين بحيث لا يعرفون ما يقابلها من الأقوال الصحيحة المعتمدة عند عامة أهل العلم .

أما قولهم الثاني وهو نهي الأئمة عن تقليدهم فهو صحيح أيضاً

---

(٢٦) نتذكر هنا تحذير الإمام التابعي أبو حَصين عثمان بن عاصم لأهل عصره حيث قال: **إن أحدهم ليفتي في المسألة ولو وردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر** .[تهذيب التهذيب]

ولكن ليس معناه نَهْيَ العاجز عن الاجتهاد أن يقلد عالماً مجتهداً، بل هو توجيه إلى تحصيل العلم والوسائل الموصلة إلى العلم والقدرة على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها، فالأئمة الذين يَنْهَوْنَ طلابهم عن تقليدهم هم الذين يحرمون على العاجزين عن الاجتهاد واستنباط الأحكام أن يجتهدوا وأن يُفْتُوا وأن يتكلموا فيما ليسوا أهلاً للكلام فيه من أمور الدين .

وإذا نصحت بتقليد مذهبِ إمامٍ من المذاهب الفقهية المحررة الثابتة المعتمدة دون تعصب مع السعي لمعرفة الأدلة فإنما أنصح بذلك المسلم الراغب في طلب العلم، الحريص على الوصول إلى البصيرة في الدين .

أما من كان من العامة الذين لم يدرسوا العلم ولم يسعَوا إليه فإنه يسعهم أن يسألوا أهل العلم عن المسألة التي تعرض لهم، ومثلُ هذا السائلِ مذهبُه في المسألة التي يَسأل عنها مذهبُ مفتيه .

هل صحيح أن باب الاجتهاد قد أغلق ؟

جاء التشريع الإسلامي كاملاً عاماً صالحاً لكل العصور، ولا شك أنه يَحْدُث في العصور المتأخرة أمورٌ وحوادث جديدة في حياة الناس الخاصة والعامة تتجدد باستمرار، ولا بد أن يكون كثير منها غير داخل بشكل واضح تحت عموم نصوص القرآن والسنة، فلا بد من الاجتهاد لاستنباط أحكام شرعية لهذه الأمور المتجددة، لأن هذا الدين كامل، ومن كماله أن يكون في الأمة مجتهدون قادرون على الوفاء بمقتضيات ما يتجدد من الأمور في حياة الناس .

ودعوى إغلاق باب الاجتهاد غير صحيحة؛ لأنه لا دليل عليها، بل وجود مجتهدين في الأمة يستنبطون الأحكام الشرعية للأمور الجديدة من أدلتها من فروض الكفاية، تكون الأمة آثمة إذا لم يوجد فيها هؤلاء المجتهدون .

حاجة الأمة إلى وجود اجتهاد جماعي

ومن الأمور التي تعظم فائدتُها وجودُ اجتهاد جماعي فيما تحتاجه الأمة من الأمور الجديدة، وما تمليه حاجة الأمة، وهذا أمر نرجو الله تعالى أن يُهيئَ أسبابَه وييسرَ حصولَه، لما فيه من الفوائد العظيمة، ومن أحسنها وقاية الأمة من الاضطرابات الفقهية وحمايتها من فتاوى من ليسوا أهلاً للفتوى .

وأذكر هنا أنه لا يكفي فيمن يشارك في هذا النوع من الاجتهادات مجرد الحصول على الشهادات، ولا الوصول إلى عالي المناصب الدينية الرفيعة في هذا العصر الذي تحقق فيه ما حذر منه النبي ﷺ عندما أجاب الذي سأله عن الساعة، فقال: « **إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ** » قال السائل: كيف إضاعتها، قال: « **إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ** » [البخاري / ٥٩] .

وقد مرت على الأمة ظروف انتشرت فيها فكرة إغلاق باب الاجتهاد، عندما عَمَّت دراسة المذاهب الفقهية دراسة بعيدة عن منهج دراسة الأئمة المجتهدين وأتباعهم، وبعيدة عن أصول الفقه، ودون ربط الأحكام بأدلتها (٢٧) فَحُرِمَ المتفقه بهذا الابتعاد من الأسباب التي تجعله على بصيرة في دينه، وتعطيه القدرة على تبصير غيره، فغلب على المتفقهين الشعور بالضعف في أهل عصرهم، ونشأت بهذه الأسباب فكرة إغلاق باب الاجتهاد .

---

(٢٧) إن دراسة الفقه دراسة مرتبطة بأصول الفقه وبالأدلة الشرعية مع الاطلاع على علم السابقين تُثْمِرُ - بالإضافة إلى البصيرة في الدين - سعةَ الأفق الفقهي والمرونةَ الشرعية المنضبطة، وتحمي طالب العلم من التعصب المذموم، وتبعده عن الاجتهاد ولو في مسألة جزئية قبل أن تتحقق فيه الأهلية، وتُعَرِّفُهُ بعظم منْزلة العلماء السابقين وبسعة علمهم التي يستصغر أمامها نفسَه، ويَعرف بها قلةَ علمه، وتفتح أمامه الطريق للسير في طريق الراسخين في العلم .

وشاع في تلك الظروف تعصبٌ مذمومٌ [٢٨] للمذاهب وللشيوخ حذر منها العلماء الذين وفقهم الله تعالى فأعطاهم نصيباً من سعة الأفق وبُعْدِ النظر العلمي .

ومن هؤلاء العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الذي تعجب من حال هؤلاء الفقهاء المتعصبين حيث قال:

إنَّ من العجب العجيب أنَّ أحدهم يقف على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدْفَعاً، ومع هذا يقلده فيه، ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه، جموداً على تقليد إمامه، بل يتحيل لدفع ظواهر الكتاب والسنة ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مُقَلَّدِه .

وذكر رحمه الله تعالى أنه إذا ذُكِرَ لأحدهم خلافُ ما وطَّنَ نفسه عليه تعجب منه غاية العجب من غير استرواح إلى دليل، بل لما ألفه من تقليد إمامه حتى ظن أن الحق منحصر في مذهب إمامه، ولو تدبره لكان تعجبه من مذهب إمامه أولى من تعجبه من مذهب غيره [٢٩] .

ثم قال: فالبحث مع هؤلاء ضائع مُفْضٍ إلى التقاطع والتدابر من غير فائدة يُجْديها.

---

(٢٨) ليس الالتزام بالحق المبني على الأدلة تعصباً بل هو تمسك بالحق ولكن عندما شاع إطلاق بعض الناس كلمة (التعصب) على الملتزمين بشرع الله تعالى رأيت من المناسب أن أصف التعصب الذي حذر منه العلماء بكلمة (المذموم)

(٢٩) ليس هذا الوصف من التعصب المذموم منحصراً في بعض من يظن أنه مقلد لأحد الأئمة الأربعة أصحابِ المذاهب الفقهية المنتشرة فحسب، بل رأينا مثله وأشدَّ منه تعصباً فيمن ينكر التقليدَ على العامة، ويتوهم أنه يأخذ الأحكام من القرآن والسنة دون تقليد، ولكنه في الواقع مُقَلِّدٌ لبعض الباحثين المعاصرين في الأحكام الفقهية، ويظن مع تقليده لهم أنه متبع لأدلة الكتاب والسنة .

ثم قال: وَفَّقَنا اللهُ لا تباع الحق أينما كان، وعلى لسان مَنْ ظَهَرَ، وأين هذا من مناظرة السلف، ومشاورتهم في الأحكام ومسارعتهم إلى اتباع الحق إذا ظهر على لسان الخصم، قال: وقد نقل عن الشافعي رحمه الله أنه قال ما ناظرت أحداً إلا قلت: اللهم أجْرِ الحقَّ على قلبه ولسانه، فإن كان الحق معي اتبعني وإن كان الحق معه اتبعته اهـ .

[قواعد الأحكام ٢ / ٢٧٤ و ٢٧٥]

لا حرج على المقلد أن يترك مذهب إمامه ليعمل بحديثٍ بشروط

لا ينبغي أن يَفْهَمَ أحدٌ من التوجيهات السابقة أنها دعوة إلى تقليدٍ للأئمة مرتبطٍ بالجمود والبعد عن الأدلة، بل هو دعوة إلى العلم بمنهج أعلام أئمة هذه الأمة، على قواعد التحصيل العلمي الذي تقدمت بعض قواعده، ومنها اتباع الحق أينما كان، وعلى لسان مَنْ ظَهَرَ، ومن ذلك تركُ طالب العلم لمذهب إمامه عندما يظهر رجحان قول آخر بدليل يمكن الاعتماد عليه .

ومن منهجهم في ذلك ما نقله النووي عن ابن الصلاح أنه قال: من وجد من الشافعية حديثاً يخالف مذهبه نُظِرَ:

إن كملت آلات الاجتهاد فيه مطلقاً، أو في ذلك الباب أو المسألة كان له الاستقلال بالعمل به .

وإن لم يكمل وشقَّ عليه مخالفةُ الحديث بعد أن بحث فلم يجد لمخالفته عنه جواباً شافياً فله العمل به إن كان عمل به إمام مستقل[٣٠] غيرُ الشافعي، ويكون هذا

---

(٣٠) قد يستغرب بعض الإخوة هذا الشرط ويقول: أيمتنع على المسلم أن يعمل بحديث رسول الله ﷺ إلا بعد أن يعلم أن مجتهداً قد عمل به؟ وهل حديثه ﷺ تابعٌ لعمل الإمام المجتهد أم الأئمة تبع للحديث؟

والجواب أن موافقته لبعض المجتهدين السابقين حماية له من العمل بحديث منسوخ، ومن العمل بفهم غير صحيح من الحديث، أو العملِ بقول شاذٍّ تعارضه أدلة أقوى، فهو لا يميز بين الناسخ والمنسوخ، ولا قدرة له على الترجيح بين الأدلة، وقد ذكر الشاطبي في الموافقات أنَّ العمل

عذراً له في ترك مذهب إمامه هنا اهـ، ثم قال النووي: وهذا الذي قاله حسن متعين والله أعلم اهـ [**المجموع ١/ ١٠٥**] .

وإذا كان التعصب المذموم مخالفاً لمنهج الحق الذي سار عليه الصحابة ﷺ والتابعون والأئمة المجتهدون وأتباعهم الحقيقيون، فإن التجرؤ على الكلام في الدين والاجتهادَ من غير أهله مخالفان أيضاً لمنهج الحق الذي ساروا عليه .

وقد كثر في عصرنا الاجتهاد من غير أهله من قِبَلِ الضعفاء في طلب العلم، وكثيرٌ منهم لم يتلقوا العلوم الشرعية على العلماء، حيث إنهم اقتصروا في دراستهم للعلم الشرعي على مطالعاتهم، ودون مدارسة مع العلماء وطلاب العلم، ويشبه حالُهم حالَ من يتكلم في الطب بمجرد مطالعته لكتب الطب دون دراسة العلوم الأساسية التي يبنى عليها علم الطب، ودون التلقي عن الأطباء .

حال كثير من الكتب الفقهية المعاصرة

وقد كثرت في هذا العصر كتب تتحدث عن الفقه في الدين كتبها أناس رأوا ما تقدم ذكره من الجمودِ في التقليد، والتعصبِ للمذاهب، مع البعد عن الأدلة، والغفلة عن علوم الحديث، والوقوع في رواية الموضوعات والمنكرات، وتوهموا أن سبب هذا كلِّه تقليدُ الأئمة المجتهدين، فانطلقوا تحت وطأة سلطان رد الفعل – مع إلمامٍ بقليل من العلم واطِّلاعٍ على بعض جوانبه – يحاربون التقليد ويرونه منكراً، ويدعون إلى الأخذ من القرآن

المعارض لما مضى عليه عمل الأقدمين مزلة قدم، وأنه قَلَّما تقع المخالفة لعمل المتقدمين إلا ممن لا يكون من أهل الاجتهاد وإنما أدخل نفسه فيه غلطاً أو مغالطة إذ لم يشهد له بالاستحقاق أهلُ الرتبة ولا رأوه أهلاً للدخول معهم، قال: لأن المجتهدين وإن اختلفوا في الأمر العام في المسائل التي اختلفوا فيها لا يختلفون إلا فيما اختلف فيه الأولون [**الموافقات ٣/ ٧٥ – ٧٦**] فالشرط الذي ذكره النووي حماية من الزلل، وإلا فمن البديهي الذي يدركه الخاصة والعامة أنه لا رأي لأحد مع قول رسول الله ﷺ .

والسنة، وإلى ترك رأي الرجال، وألَّفوا كتباً يدفعون فيها العامة إلى الأخذِ من القرآن والسنة [٣١] .

ولكن هذه الكتب مليئة بالمسائل التي فيها مجال للاختلاف الفقهي، فاجتهد المؤلفون لهذه الكتب وجمعوا ما ترجح عندهم من الاستنباطات، التي يقطعون — وهم مخطئون – بأنها الحق دون سواه، وكانوا في كثير مما وصلوا إليه من الأحكام بعيدين عن سعة الاختلاف الفقهي، المبني على كثرة الأدلة ومرونتها، وعن قواعد الفقه وأصوله، وعن وجوه الترجيح بين الأدلة التي ظاهرها التعارض، ووجد في بعض تلك الكتب إنكار لكثير من أقوال الأئمة المجتهدين الراسخين في العلم، والتي بنيت على أدلة أقوى من الأدلة التي اعتمد عليها هؤلاء الكاتبون .

والمتأمل في تلك الكتب يجد فيها:

١– أقوالاً يوافقون فيها بعض المجتهدين الذين يخالفهم غيرهم .

٢– وأقوالاً يوافقون أقوالاً شاذة ويخالفون الجمهور .

٣– وأقوالاً تخالف جميع أقوال أهل العلم .

ولكن كثيراً من أصحاب هذه الكتب لا يذكرون فيما يرجحونه أنه مذهب إمام من الأئمة المشهورين، ولا يبين الكاتبون أن تلك الأحكام من اجتهادهم، وأنها مذهبهم، بل يُوحِي كثير منهم للقارئين أن ما ذكروه هو السنة، وأنه الحق، دون سواه، فيأخذ الجاهل في هذا الأمر تلك الأحكامَ على أنها الحق متعصباً لها، وإن كان بعضها شاذاً مخالفاً لما عليه جماهير الأمة .

---

(٣١) مما يدركه العلماء أن الأحكام المأخوذة من القرآن والسنة لا بد في كثير منها إلى اجتهاد المجتهدين، بسبب وجود احتمالات في الفهم، أو وجود أدلة متعارضة في الظاهر، وعندما يُدفع المسلم من العامة إلى أخذ تلك الأحكام من أدلتها يكون مدفوعاً إلى الإثم، وقد ذكر الشاطبي في الموافقات ٣ / ٧٥ أنَّ المجتهد الذي عنده أهلية الاجتهاد إذا لم يعط الاجتهاد حقه وقصر فيه فهو آثم اهـ فكيف إذا اجتهد وليس عنده هذه الأهلية؟ .

وهذه قضية ضررُها أقلُّ لو بينوا أن هذا أمر من اجتهادهم الذي يخالفون فيه غيرهم من العلماء .

ولكن المشكلةَ الأكبر والأمرَ الأكثر ضرراً أنَّ هذه الكتب توهم القارئين أنهم في هذه المسائل الاجتهادية هم أهل الحق المتبعون للنبي ﷺ وأن من يخالفهم مبتدع متبع لرأي الرجال وإن قَلَّدَ إماماً من أعلام المجتهدين الذين سَلَّمَتْ لهم الأمة بأنهم أهل للاجتهاد .

ولا يدري القارئ لتلك الكتب أنه متبع لرأي رجال هم على الأقل ليسوا من أعلام المجتهدين، وهم أيضاً مشكوك في أهلية كثير منهم للاجتهاد ولو في مسائل جزئية .

وهذا الذي يسير عليه أصحاب هذه الكتب من القطع بما يؤدي إليه اجتهادهم، وتصويرِه بأنه السُّنةُ والحقُّ أمرٌ بعيد عن منهج كبار علماء السلف والخلف، انظر إلى الإمام الباجي يوضح لنا منهج الراسخين في العلم في نصيحته التي يوجه فيها طالب العلم الذي ينظر في كتابه إلى طريق الراسخين في العلم حيث يقول في مقدمة كتابه **المنتقى شرح الموطأ** :

فتوى المفتي في المسائل وكلامُه عليها وشرحُه إنما هو بحسب ما يوفقه الله تعالى إليه ويعينه عليه .

وقد يرى الصواب في قول من الأقوال في وقت ويراه خطأً في وقت آخر، ولذلك يختلف قولُ العالم الواحد في المسألة الواحدة .

فلا يعتقدِ الناظرُ في كتابي أن ما أوردتُه من الشرح والتأويل والقياس والتنظير طريقُه القطعُ عندي حتى أعيبَ من خالفها، وأذمَّ من رأى غيره .

وإنما هو مبلغ اجتهادي، وما أدى إليه نظري، وأما فائدة إثباتي له فَتَبْيِيْنُ منهج النظرِ والاستدلالِ، والإرشادُ إلى طريق الاختبار والاعتبار.

فمن كان من أهل هذا الشأن فله أن ينظر في ذلك ويعمل بحسب ما يؤدي إليه اجتهاده من وفاق ما قلته أو خلافه.

ومن لم يكن نال هذه الدرجة فليجعل ما ضمنته كتابي هذا سلماً إليها وعوناً عليها، والله ولي التوفيق، والهادي إلى سبيل الرشاد اهـ [مقدمة المنتقى] .

تحذير العلماء من الغرائب

ومما ينصح به طالب العلم أن يحذر مما ينتشر في هذا العصر من الأقوال الشاذة الغريبة التي نُبِشَ كثير منها وانتشر مما كان العلماء السابقون يفرُّون من أمثالها ويخشون من التكلم بها .

وقد روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن حماد بن زيد أنَّ رجلاً لزم أيوب السختياني وسمع منه، ففقده أيوب، فقالوا: يا أبا بكر إنه قد لزم عمرَو بنَ عبيد [٣٢] ،

---

(٣٢) عمرو بن عبيد رأسٌ من رؤوس المعتزلة، قال ابن حبان في كتابه [**المجروحين**]: عمرُو بنُ عبيد بنِ كيسان أصله من فارس سكن البصرة، كان من العباد وأهل الورع الدقيق، ممن جالس الحسن سنين كثيرة ثم أحدث ما أحدث من البدع واعتزل مجلس الحسن ومعه جماعة فسموهم المعتزلة، وكان عمرو بن عبيد داعية إلى الاعتزال يشتم أصحاب رسول الله ﷺ ثم روى عن أبي عوانة قال أتيت مجلس عمرو بن عبيد قال فَقَصَّ على الناس فأطال فلما كان في آخر كلامه قال لو نزل عليكم ملك من السماء ما زادكم على هذا، فقلت غيري من عاد إليك .

[المجروحين ٢/ ٦٩]

وروى ابن حجر في تهذيب التهذيب في ترجمته لعمرو بن عبيد عن الأصمعي قال: جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء – أحدِ القراء السبعة – فقال يا أبا عمرو يخلف الله وعده؟ قال لا قال أفرأيت إن وعد الله على عمل عقاباً يخلف وعده؟ قال له أبو عمرو: من العُجمة أُتِيْتَ، يا أبا عثمان إن الوعد غير الوعيد، إنَّ العرب لا تعد خلفاً ولا عاراً أن تعدَ شراً ثم لا تفعلَه، بل ترى أن ذلك كرم وفضل، إنما الخلف أن تعد خيراً ثم لا تفعلَه، قال فأوجدني هذا في كلام العرب قال أما سمعت:

ولا يرهب ابنُ العم ما عشتُ صولتي ... ولا أختبي من خشية المتهدد

وإني إذا أوعدته أو وعدته ... لَمُخلِف إيعادي ومنجز موعدي

وأنَّ أيوبَ لقيه في السوق، فسلم عليه أيوب وقال له: بلغني أنك لزمت ذاك الرجل؟ قال: نعم، يا أبا بكر إنه يجيئنا بأشياء غرائب، فقال له أيوب: إنما نفر أو نفرق من تلك الغرائب .

قال النووي رحمه الله تعالى: معناه إنما نهرب أو نخاف من هذه الغرائب التي يأتي بها عمرو بن عبيد مخافة من كونها كذباً، فنقع في الكذب على رسول الله ﷺ إن كانت أحاديث، وإن كانت من الآراء والمذاهب فحذراً من الوقوع في البدع أو في مخالفة الجمهور اهـ [**شرح مسلم ١/ ١١٠**] .

وبعد هذا ينبغي أن نتذكر أنَّه إذا رأى أحدنا خطأً من أخيه فلا ينبغي أن ينكر ما عند هذا الأخ من فضل وخير، وكما أن عند أخي عيوباً وأخطاءً فإنَّ عندي عيوباً وأخطاءً، ونسأل الله تعالى العافية لنا ولهم، ولا عصمة إلا للأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

وقد انتشرت في عصرنا أقوال وفتاوى أرى أنها من الأقوال الغريبة وأن من النصيحة أنْ أُحَذِّر منها:

وعن قريش بن أنس قال: سمعت عمرو بن عبيد يقول يؤتى بي يوم القيامة فأقام بين يدي الله تعالى فيقول لي: لم قلتَ: إن القاتل في النار – أي خالد فيها – فأقول: أنتَ قُلْتَهُ ثم تلا ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً** .. ﴾ الآية قال فقلت له – وما في القوم أصغرُ مني – : أرأيتَ إن قال لك: إني قد قلتُ ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ مِنْ أين علمتَ أني لا أشاء أن أغفر لهذا، قال فما رد عليَّ شيئاً، و الأخبار عنه في هذا الباب كثيرة جداً اهـ .
[**تهذيب التهذيب**]

لينظر طالب العلم إلى هذا الرجل الذي كان من العباد وأهل الورع الدقيق، ممن جالس الحسن سنين كثيرة كيف صار باباً من أبواب الضلالة وليحذر كلٌّ منا من الغرور بنفسه أو علمه أم فهمه، وليلتجئ إلى الله تعالى طالباً منه الهداية والتوفيق والثبات .

١– إباحة بعض معاملات الربا [٣٣] .

٢– جواز كشف المخطوبة ما عدا الوجه والكفين كالرأس والساعد ونحو ذلك للخاطب [٣٤] .

٣– إباحة مصافحة المرأة الأجنبية إذا كانت القلوب سليمة، وادعاء أن عدم مصافحة النبي للنساء من خصوصياته عليه الصلاة والسلام [٣٥] .

---

(٣٣) وذلك كإباحة فوائد البنوك التي أشاعها أحد أصحاب المناصب الدينية في مصر ورد عليه الشيخ يوسف القرضاوي رداً علمياً جيداً جزاه الله خيراً في كتابه: [**فوائد البنوك هي الربا المحرم**].

(٣٤) أخذ بعضهم هذا من حديث أبي داود والحاكم عن جابر ﷺ « **إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل** » وقد قال جمهور أهل العلم : يرى الوجه والكفين فقط، وقال بعض أهل العلم ينظر إليها وإن كانت لا تعلم، وقال آخرون ينظر إلى ما يظهر غالباً سوى الوجه كالكفين والقدمين ونحو ذلك مما تظهره المرأة في منْزلها وهو رواية عن الإمام أحمد، وهذا محتمَل فهمُه من الحديث، ولكن أين في الحديث أن المرأة تكشف للخُطَّاب شعرها أو ذراعها، أو ساقها، ولو أن أحداً أفتى بجواز كشف شعرها دون صدرها فما المانع أن يفتي آخرُ بكشف صدرها أو غيره، فمن قَبِلَ كشفَ الرأس لا يستطيع أن يرفض كشف الصدر أو الساق .

ولا بد من التنبيه أنه لا يوجد في الحديث دلالة لهذه الأقوال الشاذة مما يفتي بكشفه بعض المعاصرين مخالفين لأقوال العلماء المعتمدة دون دليل واضح .

(٣٥) لقد تساهل كثير من الناس في مصافحة المرأة الأجنبية، وأفتوا بجوازها، يَدْفَعُ كثيراً منهم إلى ذلك دوافعُ التحرر من القيود الشرعية، وهؤلاء لا يستغرب منهم مثل ذلك الأمر، لكنَّ بعض الطيبين يدفعهم إلى ذلك حرصهم على إظهار يسر الإسلام فدفعهم هذا الأمرُ إلى البعد عن الأقوال المعتمدة عند جمهور العلماء إلى أقوال شاذة ومن ذلك الحكم بجواز مصافحة المرأة الأجنبية، وعندما اصطدمت هذه الفتوى بالأحاديث الصحيحة في الصحيحين وغيرهما أنه ما مست يده ﷺ يد امرأة لا تحل له وأنه لا يصافح النساء سمعنا العجب وهو أن هذا الأمر وهو عدم مصافحة النساء كان من خصوصياته ﷺ ! أقول لهؤلاء الإخوة: ما وجه هذه الخصوصية ؟

٤- تحريم صلاة التراويح بأكثر من إحدى عشرة ركعة [٣٦] مع ما عليه جماهير أهل العلم، وعمل المسلمين في سائر العصور من الزيادة على ذلك .

ومن قال بها قبلكم؟ وهل مَنْعُ المصافحة تشريعٌ يليق بالنبي ﷺ دون أهل عصرنا وشبابنا؟ وهل السماح بالمصافحة يليق بنا ولا يليق بالنبي ﷺ ؟ .

أقول للقارئ الكريم: هل ترى أن الإسلام الذي منع المرأة من إظهار صوت خلخالها المستور بثيابها التي تَجُرُّها على الأرض، وأمر الرجال بغض أبصارهم عن جميع جسدها، وعن كفها أيضاً يبيح لها أن تصافح الرجال ويصافحوها، وإذا كانت المصافحة من تمام التحية في بلادنا وعُرْفِنا فإن تقبيل الوجه من تمام التحية أيضاً في بلاد أخرى وعُرْفِهم فهل يباح تقبيل الوجه بين الرجل والمرأة إذا كان ذلك بنية سليمة؟ فإذا قال لا يجوز فإنه لا يجد دليلاً مقنعاً يفرق بين الأمرين .

(٣٦) عدم جواز صلاة التراويح أكثرَ من ثماني ركعات مع الوتر من الفتاوى التي انتشرت في عصرنا، وهي فتوى تخالف ما عليه جماهير علماء المسلمين في عامة عصورهم ومنهم الأئمة الأربعة وأتباعهم .

ولم تزل جماهير المسلمين منذ زمن الصحابة ﷺ إلى عصرنا هذا يصلون التراويح عشرين ركعة ويرون ذلك موافقاً للسنة، ولم يكن أحد ممن يرى عدداً آخر للتراويح يقول بعدم جواز العشرين أو غيرِها، وقد نقل ابن حجر في الفتح ٤ / ٢٥٣ عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قال: رأيت الناس يقومون بالمدينة بتسع وثلاثين، وبمكة بثلاث وعشرين، وليس في شيء من ذلك ضيق، ونقل عن الإمام نافع شيخ الإمام مالك وتلميذ ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم أدرك الناس إلا وهم يصلون تسعاً وثلاثين يوترون منها بثلاث .

ونتج عن تلك الفتوى ظاهرة غير حسنة في كثير من المساجد وهي تركهم صلاة الإمام والجماعة في التراويح بعد ثماني ركعات، وهذا مخالف للتوجيهات العامة في الدين التي تدعو إلى وحدة الجماعة واتباع السلف الصالح .

ومما أراه نافعاً التذكير بما فعله الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ علامة البلاد السعودية في عصره الذي تولى رئاسة دار الإفتاء والمعهد العالي للقضاء ورئاسة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، والمجلس الأعلى لرابطة العالم الإسلامي وغيرها، عندما علم أنَّ الشيخ إبراهيم بن عبد الله بن عتيق

٥- جواز المسح على الجوربين الذي اجتهد بعض أهل العلم المعاصرين فيه فترجح عندهم صحة المسح على الجوربين في الوضوء وإن كانا رقيقين، كجوارب عصرنا، اعتماداً منهم على ما رأوه من صحة حديث الترمذي أنه ﷺ مسح على الجوربين، وعلى ما ثبت عن بعض الصحابة ﷺ من مسحهم على الجوربين (٣٧) .

صلى التراويح ثماني ركعات في بعض المساجد أرسل إليه برقيةً يقول فيها: صل كما يصلي الناس صلاة التراويح، قال الشيخ إبراهيم: فعدت وصليت عشرين ركعة كما أمر سماحته .

ذكر ذلك الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في كتابه الذي ذكر فيه ترجمة واسعة طيبة لستة من مشاهير علماء القرن الثالث عشر ص/ ٢٨١ .

(٣٧) وقد انتشرت هذه الفتوى بقوة وسائل الإعلام وعمل بها كثير من المسلمين في البلاد الإسلامية وفي البلاد الغربية بل عم العمل بهذه الفتوى أكثر الناس في بعض المجتمعات المسلمة، حتى صار الأقل فيهم من يغسل رجليه في الوضوء، فما هو الصواب في هذه المسألة؟ .

كلام العلماء في هذه المسألة له ثلاثة جوانب: اللغة، وعلم الحديث، وأصول الفقه .

١- أما الجانب اللغوي فإننا نحتاج في بحثنا إلى الوقوف على ما نفهمه من كلمة [**جورب**] وعلى ما كان يُفْهَم منها في عصر النبي ﷺ وعصر الصحابة ﷺ ، فالجورب ليست من كلمات اللغة العربية الأصلية، بل هي معربة.

قال في لسان العرب ١٤ / ٣٩٧ : واسم الجورب الْمِسْماة، وهو يلبسه الصياد ليقيه حر الرمضاء إذا أراد أن يتربص الظباء نصف النهار، والاستماءُ أيضاً أن يتجورب الصائد لصيد الظباء وذلك في الحر، وقال ١١/ ٧٠١ : السامي الذي يطلب الصيد في الرَّمْضاء يلبس مِسْمَاتَيْه ويُثير الظِّباء من مَكانِسِها، فإذا رَمِضت تشقَّقت أَظْلافها ويُدْرِكها السامي فيأْخذها بيده .

وقال في تاج العروس شرح القاموس: (واستمى الصائد لبس المسماة) بالكسر اسم (للجورب) ليقيه حر الرمضاء ، ونقل في عون المعبود ١/ ١٨٥ عن الطيبي قال: الجورب لفافة الجلد وهو خف معروف .

٢- وأما جانب الحديث فقد روى الترمذي من طريق أبي قيس عن هزيل بن شرحبيل، عن المغيرة بن شعبة، قال: توضأ النبي ﷺ ومسح على الجوربين والنعلين قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

وروى النسائي في الكبرى ١/ ٩٢ هذا الحديث وقال: ما نعلم أن أحداً تابع أبا قيس على هذه الرواية، والصحيح عن المغيرة أن النبي ﷺ مسح على الخفين والله أعلم

ولكن كبار المحققين من علماء الحديث خالفوا الترمذي في تصحيحه وضعفوه، وخلاصة أقوالهم نقلها النووي في المجموع ١/ ٥٦٦ قائلاً: وقد ضعفه البيهقي ونقل تضعيفه عن سفيان، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين، ومسلم بن الحجاج، ثم قال النووي: وهؤلاء هم أعلامُ أئمةِ الحديث، ومقدمون على الترمذي، بل كل واحد من هؤلاء لو انفرد قدم على الترمذي باتفاق أهل المعرفة اهـ .

وإلى هذا أشار الإمام مسلم رحمه الله بقوله: لا يترك ظاهر القرآن بمثل أبي قيس وهزيل، كما في السنن الكبرى ١/ ٢٤٩ للبيهقي .

لكنه صح أن عدداً من الصحابة ﷺ مسحوا على الجوربين .

٣ – وأما جانب أصول الفقه ففيه عدة نقاط :

الأولى: لا يصح الاعتماد على المرفوع [أنه ﷺ مسح على الجوربين] لما تبين من ضعفه .

الثانية: بعد الإقرار بأن ما روي من فعل الصحابة ﷺ إذا اشتهر ولم ينكره أحد منهم يمكن الاعتماد عليه أقول: أما في هذه المسألة وأمثالها فلا يعتمد عليه لأننا لا نستطيع أن نجزم بأنهم مسحوا على جوربين رقيقين، وقد عرفنا أن الجوربين كانا يقيان رجلي الصائد من حر الرمضاء الذي تتشقق فيه أظلاف الظباء، فما روي عن الصحابة ﷺ محمول على جوربين ثخينين لهما شَبَهٌ بالخفين كما فَهِمَ الأئمة الذين نقل عنهم الترمذي جوازه حيث قال بعد أن روى الحديث السابق: وهو قول غير واحد من أهل العلم، وبه يقول سفيان الثوري و ابن المبارك و الشافعي و أحمد و إسحق، قالوا يمسح على الجوربين إذا كانا ثخينين اهـ وكما نقل ابن قدامة المقدسي في المغني ١/ ١٨٢ عن الإمام أحمد أنه قال: لا يجزئه المسح على الجورب حتى يكون جورباً صفيقاً يقوم قائماً في رجله لا ينكسر مثل الخفين، إنما مسح القوم على الجوربين أنه كان عندهم بمنزلة الخف يقوم مقام الخف في رِجل الرَّجُل يذهب فيه الرجل ويجيء .

الثالثة: إذا قيل مسح الصحابة على الجوربين مطلقاً دون تقييد بشيء فالجواب أنَّ الأصل هو غسل الرجلين كما هو ظاهر القرآن والعدول عنه لا يجوز إلا بأحاديث صحيحة كأحاديث المسح على الخفين ولم يوجد ذلك في المسح على الجوربين، ولم نعلم أن الصحابة مسحوا على جوربين رقيقين، فكيف يجوز العدول عن غسل القدمين إلى المسح على الجوربين مطلقاً .

٦- صحة صلاة الجمعة دون أي شرط من الشروط الخاصة لصحة الجمعة التي ذكرها المجتهدون وادعاء أنها كبقية الصلوات (٣٨) .

---

(٣٨) كتب بعض المعاصرين كتاباً في الفقه - وأظنُّ أنه عندما ألف كتابه هذا كان محكوماً برد الفعل بسبب ما رأى حوله من التعصب والجمود عند كثير من طلاب العلم - ونقل في هذا الكتاب أقوال أهل العلم في المسائل وذكر ترجيحاته واجتهاداته في تلك المسائل .

ورأيت في كتابه أموراً تُوْهِمُ القارئ أنّ بعض الترجيحات التي اختارها هي الحقُّ والسنة، وأن ما يخالفها مخالف للصواب والحق، والواقع أنها على الأقل اجتهادات مجتهد لم يبلغ درجات الأئمة المجتهدين الذين اعترفت الأمة بأهليتهم، ووافق اجتهاداتهم جماهير علماء الأمة في كل العصور .

ينتقدهم بمثل هذا الأسلوب الذي اتبعه في مسألة شروط صحة الجمعة .

وقد أتى في هذه المسألة بأمر عجيب، حيث رجح فيها أنه لا يشترط في صحة الجمعة شيء مما ذكره علماء المذاهب الفقهية من عدد معين، بل يصح أن يصليها رجلان فقط، ولا يشترط مكان معين، فيصليها رجلان في أيِّ مكان وُجدا فيه، فلا يشترط كونها في مصر أو قرية، وأنه لا يشترط فيها خطبة، فتصح صلاة ركعتين بلا خطبة، ولا يشترط إذن إمام الأمة، ولا غير ذلك .

وذكر أن الشروط التي ذكرها الفقهاء لا دليل عليها، ومما قاله عن تلك الشروط: [**ليس لها أصل يُرجع إليه، ولا مستند يُعوَّل عليه، وأنه ليس عليها أثارة من علم، ثم قال: فيا لَلَّهِ لِلْعجبِ مما يفعل الرأي بأهله، وما يخرج من رؤوسهم من الخزعبلات**] وتوهم الكاتب أن ما ذهب إليه هو عمل بالكتاب والسنة، واتهم من يخالفهم أنَّه [**لا برهان لهم فيما ذهبوا إليه ولا قرآن ولا شرع ولا عقل**] اهـ مع العلم أن الذين خالفهم في هذا الأمر هم كبار علماء الأمة في عامَّة عصورها .

وإذا قال الكاتب ما تقدم فإني أحب أن أقول هنا: يا لَلَّهِ لِلْعجبِ مما تفعل الجرأة على الاجتهاد بأهلها، وأحب أن أُذَكِّرَ بأني لا أعرف أحداً في تاريخ هذه الأمة صلى الجمعة على الوجه الذي ترجح عنده، ومن يقول من العلماء ببطلان ما ظن أنه عمل بالكتاب والسنة لا يمكن إحصاؤهم، وأذْكر منهم الأئمة الأربعة وأتباعهم فقط، وهذا مثال من اجتهادات المعاصرين التي تقابل جمود وتعصب بعض المقلدين، وإذا كان الجمود والتعصب مذموماً وضاراً فإن الاجتهاد ممن ليس عنده أهلية الاجتهاد أسوأ وأكثر ضرراً .

والأحكام الغريبة المنتشرة كثيرة يصعب إحصاؤها وما هذه إلا أمثلة لها.

وإني أرى بالإضافة إلى ما سبق أن المذاهب الفقهية المدونة المحررة حصن لنا ولعامة المسلمين من الضلالات المنتشرة باسم الدين في هذا العصر، ووقاية من الفتاوى الباطلة التي يسمعها المسلم يوماً بعد يوم .

فالمذاهب المدونة المحررة التي سار عليها الأئمة المجتهدون، وسار عليها بعد ذلك أتباعهم من كبار علماء المسلمين في مختلف العصور تُعْتَبَرُ جادةً وَسَطَ طريق الحق، من سار فيها ضمن لنفسه عدم الخروج عن طريق الحق ما دام يسير فيها .

فإذا مال إلى أطرافها فيما يجد من أقوال شاذة غريبة — وهو من غير الراسخين في العلم ولم يتأهل بعدُ للتمييز بين الحق والباطل في كل مسألة تَعْرِضُ له – فقد عَرَّضَ نفسه للخروج عن طريق الحق إلى السبل المنحرفة .

وينبغي أن نركز على أهمية هذا الحصن أكثر عند الإخوة الذين لا قدرة لهم على التمييز بين الحق والباطل، فإنهم إذا وثقوا بالمذاهب الفقهية فقد سلموا من الأقوال الشاذة والباطلة .

وقد تكلم رجل يوماً بفتوى باطلة في بعض المجالس، وزَيَّنَ فتواه ببعض ما لا يقدر العامة على معرفة زَيْفِهِ، ولما علم أحد أهل العلم بذلك ذهب إلى ذلك المجلس وسلك مِنْ أجل حماية من لا قدرة لهم على التمييز بين الحق والباطل الأسلوب التالي:

سأل المتكلمَ بتلك الفتوى عن فتواه فأقر بها، – والعامةُ في ذلك المجلس لا يقدرون على التمييز بين الأدلة – فما كان من ذلك العالم إلا أن سأله: هل قال بمثل ما قلتَ أحد من الأئمة الأربعة أو غيرهم من الأئمة المجتهدين؟ فقال: لا، فقال الرجل العالم: هذه القضية لا تجوز في مذهب أحد من الأئمة المجتهدين، وتجوز في مذهب فلان الذي يفتيكم بالجواز، وكان هذا الموقف سبباً لحمايتهم من فتوى باطلة يتجرأ عليها مثل هذا الرجل .

فينبغي لمن كان بعيداً عن طلب العلم عاجزاً عن التمييز أن لا يقبل الكلام في الدين إلا ممن عُرِفَ علمه وصلاحه وأهليته .

العامي لا مذهب له ولا حرج عليه في سؤال من تيسر له من العلماء

وإذا نصحت طلاب العلم بما تقدم فلا يخفى ما ذكره العلماء أنَّ العاميَّ الذي لم يطلب العلم ليس له مذهب معين ولا حرج عليه في سؤال من تيسر له سؤالهم من أهل العلم الموثوق بهم، الذين عُرِفَ بين الناس والعلماء علمُهم واستقامتُهم إذا عرضت له مسألة يحتاج إلى معرفة شرع الله تعالى فيها .

نعم لا حرج في ذلك بل هو حال عامة المسلمين في عصر الصحابة ﷺ وعصر التابعين وأتباعهم، بل هو حال أكثر المسلمين إلى يومنا هذا، وإن زعم كثير منهم بأنَّه على مذهب الشافعي أو أبي حنيفة أو غيرهما، وهو لا يعرف إلا مسائل قليلة من أقوال الإمام الذي ينتسب إليه .

النقطة الخامسة : لا إنكار في مسألة اختلف فيها الأئمة المجتهدون .

ما زال منذ صدر الإسلام يجري البحث العلمي في المسائل الاجتهادية بين العلماء، ويختلفون ويدلي كلٌّ منهم بدليله، ولا ينكر بعضهم على بعض، لأن هذه المسائل لا تدخل في باب إنكار المنكر .

قال النووي رحمه الله تعالى في شرح حديث: ((**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً**)):

ثم العلماء إنما ينكرون ما أُجْمِعَ عليه، **أما المخْتَلَفُ فيه فلا إنكار فيه،** لكن إن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق، فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بسنة أو وقوع في خلاف آخر.

ثم نقل عن أبي الحسن الماوردي البصري الشافعي في كتابه **الأحكام السلطانية** أن من قلده السلطان الحِسبة وكان من أهل الاجتهاد لا يغير ما كان على مذهب غيره على

الأصح، وذكر أنه لم يزل الخلاف في الفروع بين الصحابة والتابعين فمن بعدهم رضي الله عنهم أجمعين، ولا ينكر محتسب [٣٩] ولا غيرُه على غيره اهـ .

والسبب في منع الإنكار في الأمور التي اختلفت فيها أحكام المجتهدين أنَّ هذه الأحكام مقبولة عند الله تعالى وإن اختلفت ما دامت عند المجتهد أهلية الاجتهاد، فعندما يعمل باجتهاده أو يفتي به يكون مقبولاً عند الله تعالى هو ومن يأخذ باجتهاده من المقلدين .

والدليل على ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: ((**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمْ الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ**)) [البخاري/ ٩٠٤ ومسلم/ ١٧٧٠] .

ومن المعلوم أيضاً أن الصحابة ﷺ مع اختلافهم في هذه المسألة لم ينكر بعضهم على بعض .

بل كان علماء السلف يعدون اختلاف أهل العلم في مسائل الفقه يسراً وسعة على الأمة، فهذا الإمام أحمد يقول لصاحبه إسحاق بن بهلول الأنباري عن كتابه الذي سماه **لباب الاختلاف** : سَمِّهِ: **كتاب السَّعَةِ** اهـ.

[المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ١/ ٢٤٨ وطبقات الحنابلة لأبي يعلى في ترجمة إسحاق بن بهلول]

وقد غفل عن هذه النقطة بعض المبتدئين الذين لا يفرقون بين الدلالات، ولا بين مراتب الأحكام، فاعتبروا بعض مسائل الاجتهاد منكراً وصاروا ينكرونها يسيء أحدهم فيما يظن أنه فيه محسن .

---

(٣٩) هذا جانب مشرق من جوانب الحضارة الإنسانية في المجتمع الإسلامي، الذي يتمتع فيه الإنسان بجانب واسع من الحرية تجعل المحتسب – وهو مسؤول له سلطانه الذي يستطيع به إنزال العقوبة بالمخالفين – لا ينكر على من يخالفه أو يخالف الحاكمَ، ولا يقدر على معاقبته .

وكم من أخ محبٍ للخير يسمع حديثاً أو يقرؤه أو يسمع حكماً فينطلق آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر - بزعمه - في أمور لا حرج فيها في شريعتنا السمحة، ولكن الحرج في تَصَوُّرِ ذلك الأخ الذي ضاق أفقُه وقَصُرَ نَظَرُه .

وكم سَبَّبَتْ مثل هذه المواقف من البلبلة والخلاف والخصومة عندما يرى الناس مَنْ ينكر ما عرفوا جوازَه من كلام العلماء الموثوقين .

ومن الأمثلة على ذلك الإنكار على من يقرأ القرآن ويهب ثواب تلاوته للميت، أوعلى من يقرأ القرآن ويدعو اللهَ تعالى بالقبول وبأن يجعل ثواب تلاوته للميت، ومسألة وصول ثواب التلاوة للميت من الأمور الاجتهادية التي تلتبس مآخذُ الحكم فيها على العلماء، ولذلك وقع فيها اختلاف بين العلماء .

ومن المعروف أنَّ الشافعي رحمه الله تعالى ترجح عنده عدم وصولها (٤٠) استدلالاً بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى** ﴾ [النجم/٣٩] ولم يترجح ذلك لكثير من أهل العلم، ورأوْا أنَّ الآية تدل على أنَّ الميت لا يملك إلا سعيه، ولكنها لم تنف انتفاعه بسعي غيره، وقد خالف رأيَ الشافعي رحمه الله تعالى في هذه المسألةِ كثيرٌ من الشافعيةِ، وكذلك جمهور الحنابلة، ومنهم ابن تيمية وابن القيم رحمهم الله تعالى أجمعين .

---

(٤٠) ثمَّ إنَّ هناك فرقاً كبيراً بين قول الشافعي رحمه الله تعالى بعدم وصول ثواب قراءة القرآن للميت وبين ما يقال من تحريم قراءة القرآن للميت، وأنها بدعة ضلالة، وكذلك لا يتعارض القول بوصول الثواب للميت مع ما ندركه جميعاً أنَّ الفائدة الأساسية للقرآن هي للأحياء كي يتدبروا ويستبصروا ويعملوا .

النقطة السادسة :

المسائل التي يَلْتَبِسُ فيها الأمرُ على العامة لا يَأمر ولا يَنهى فيها إلا العلماء، ويبتعد عن ذلك المبتدئون في طلب العلم، فالضرر في أمرهم ونهيهم أكثرُ من النفع .

من المعروف عند أهل العلم أنَّ دلالة الأدلةِ من القرآن والسنة أنواع:

منها دلالتها قطعية، وتوصف دلالتها عند العلماء بأنها نص، والنص في اصطلاحهم: (**ما دل على معنى لا يَحْتَمِلُ غيرَه**) والقاعدة في هذا أنه (**لا اجتهاد في مورد النص**) .

ومنها دلالتها غير قطعية وتوصف دلالتها عند العلماء بأنها دلالة ظاهرة، والظاهر في اصطلاحهم: (**ما دل على معنى يَحْتَمِلُ غيرَه احتمالاً مرجوحاً**) وما يظهر راجحاً لعالم من دليل قد يظهر لغيره مرجوحاً من ذلك الدليل .

وقد بين النووي رحمه الله تعالى مسألة عدم الإنكار في الأمور التي تلتبس على العامة في شرحه لحديث ((**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً**)) فقال: ثم إنه إنما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء :

فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها .

وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه، ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء اهـ [شرح مسلم ٢ / ٣٢] .

الفصل الرابع

الاهتمام بدراسة علم الإسناد وبالانتفاع به

مِنْ أهم ما تَمَيَّزَتْ به أمة سيدنا محمد ﷺ علمُ الإسناد، وإنَّ من شكر الله تعالى على هذه النعمة أن نهتم بدراسة هذا العلم وأن نستفيد من فوائده، وأرجو الله تعالى أن يوفقنا لذلك، ومما يفيدنا في ذلك دراستنا للنقاط التالية .

النقطة الأولى : فوائد علم مصطلح الحديث

من فوائد هذا العلم:

١- الثقة بما رواه علماء الأمة من الأحاديث، حتى تكون الأحاديث الصحيحة كأننا سمعناها من لسان رسول الله ﷺ بآذاننا .

٢- تمييزُ الصحيح من السقيم والصدق من الكذب فيما روي عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

٣- السلامةُ من رواية ما لا تصح روايته من الموضوعات والأحاديث التي اشتدَّ ضعفُها مما رُوِيَ من طريق الكذابين والمتهمين والفاسقين، ومن غلب عليهم عدم الضبط .

٤- القدرة على الرد على الطاعنين المشككين في السنة الصحيحة .

النقطة الثانية : الموقف الصحيح من بعض أهل الفضل المخالفين لمقتضيات علم الإسناد

كثر في عصرنا وفيما قبله وجودُ أناس من أهل الفضل، اجتمع لهم جوانب صلاح مع جوانب علم، وقد دفعتهم محبتهم لدينهم وحرصهم على العمل الصالح إلى الدعوة إلى الخير عملاً بقوله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران / ١٠٤] ولكنهم غفلوا - مع ما هم عليه من الفضل والعلم - عن المسؤولية عما يتحدثون به من الدين، وعما يَرْوُوْنَه من الأحاديث فَرَوَوْا أحاديث موضوعة ومتروكة قد رُوِيت من طريق أناس لو شهد

أحدهم عند القاضي بدرهم لما جاز له أن يقبل شهادتهم لأنهم من الكذابين والمتهمين والمتروكين .

والموقف الصحيح في هذه القضية هو اجتناب هذا الخطأ، مع النصح وبيان الصواب والحق، ومع المحافظة على حقوق الأخوة، من المودة ورحمة الصغير، واحترام الكبير، ومعرفة الفضل لأهل الفضل، والحذر من أن يغلبنا الانشغال بأخطاء إخواننا عن أخطائنا وعيوبنا، فنحن نخطئُ كما يخطئون .

وإنَّ أخوتنا ومحبتنا لمن نحبهم واحترامنا لشيوخنا وأفاضلِنا ليست مرتبطة بالعصمة، فلا عصمة لأحد من هذه الأمة إلا لنبيها ﷺ ، ثمَّ لِمَا أجمعت عليه أُمَّتُهُ عليه الصلاة والسلام .

ومع هذه الأخوة والمحبة والاحترام لا خيار لنا ولا لمن عنده شيءٌ من نور العلم في ذب الكذب عن رسول الله ﷺ وتبيين الحق، ولا يصح لأحدنا أن يكون شيطاناً أخرس كما نقل النووي رحمه الله تعالى في الأذكار عن أبي علي الدقاق: **مَنْ سكتَ عن الحقّ فهو شيطانٌ أخرس .**

كما أنه لا بُدَّ لطالب العلم الموفق أن يقدم رضا الله على رضا الناس عملاً بحديث «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ النّاسِ كَفَاهُ الله مُؤْنَةَ النّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رَضَا النّاسِ بِسَخَطِ الله وَكَلَهُ الله إِلَى النّاسِ**» **[الترمذي / ٢٥٢٧ وابن حبان / ٢٧٦]** .

ولكن لا بد له أيضاً من استعمال الحكمة، فإذا استعمل الحكمة وسخط بعد ذلك بعض الناس من موقفه فلا حرج عليه في ذلك، والساخطون نوعان:

الأول: أناس طيبون يغلب فيهم الخير والصلاح، وسخطهم من أجل دينهم على حسب موازينهم، وهؤلاء يُرجى أن يوصلهم صلاحهم ونِيَّاتُهم الطيبة إلى معرفة الحق والسير فيما يرضاه الله تعالى ويرضاه رسوله ﷺ .

والثاني: أناس جعلوا الدين مطية لمصالح دنياهم واستطاعوا أن يُظْهِرُوا أنهم من حملة هذا الدين مع عمق جهالتهم، ورأى هؤلاء أن نشر العلم الموقظِ للناس فيه خطر

على مصالحهم .. ومثل هؤلاء يَقِلُّ الأمل في صلاحهم، ومع هذا لا يصح القنوط من صلاحهم، ونرجو من الله الخير والهداية لنا ولهم .

أحاديث مشتهرة حكم عليها أهل العلم بالوضع وحذروا من روايتها

ومن المفيد في هذا الفصل أن أذكر بعض الأحاديث المشتهرة التي حكم عليها أهل العلم بالوضع [٤١] ويرويها كثير من الإخوة:

من كتاب اللآلئ المصنوعة للسيوطي وتنزيه الشريعة للكناني

اتفق مع السيوطي في كتابه: **اللآلئ المصنوعة** الكنانيُّ في كتابه: **تنْزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة** على الحكم بالوضع على الأحاديث الموجودة في الفصل الأول من كل باب من كتابه، ووافقه أيضاً على الحكم بالوضع على الأحاديث الموجودة في الفصل الثالث الذي وضع فيه الأحاديث التي حكم السيوطي بوضعها في كتابه: **ذيل الموضوعات** وهذه أمثلة من هذه الأحاديث الموضوعة التي حذَّرَا منها:

– ((سألت ربي أن يجعل حساب أمتي إلي لئلا تفتضح عند الأمم فأوحى الله إلي يا محمد بل أنا أحاسبهم ، فإن كان منهم زلة سترتها عنك لئلا تفتضح عندك)) .

---

(٤١) بعض الأحاديث يَقْطَعُ ويُجمِع أهلُ العلم بأنها موضوعة، ويختلفون في بعضها، ويكثر اختلافهم في الحكم على بعض الأحاديث، فيراها بعضهم شديدة الضعف، ويراها غيرهم موضوعة، ولكن التنبيه لهذا الأمر لا يقتضي التساهل في رواية هذه الأحاديث المختلف فيها، ومما يمنع من التساهل في روايتها توجيهُ النبي ﷺ ، استشهد به الإمام مسلم في مقدمة صحيحه حيث قال: ودلت السنة على نفي رواية المنكر من الأخبار، كنحو دلالة القرآن على نفي خبر الفاسق وهو الأثر المشهور عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ودلت السنة على نفي رواية المنكر من الأخبار كنحو دلالة القرآن على نفي خبر الفاسق وهو الأثر المشهور: ((**مَن حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ**)) .

– « لا إله إلا الله حصني فمن دخله أمن من عذابي » .

– « إذا كان يوم القيامة نادى مناد: يا محمد قم فادخل الجنة بغير حساب فيقوم كل من اسمه محمد ويتوهم أن النداء له فلكرامة محمد لا يمنعون » .

– « ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن » .

– « فضل رجب على سائر الشهور كفضل القرآن على سائر الكلام » .

– « من عرف نفسه عرف ربه » .

– « من زنى زُنِي به ولو بحيطان داره » .

– « من تهاون بصلاته عاقبه الله بخمس عشرة خصلة ....الخ » .

– «كنت كنْزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً فعرفتهم بي فعرفوني » .

– « علمه بحالي يغنيه عن سؤالي (حكاية عن الخليل ﷺ) » .

ومن كتاب لسان الميزان لابن حجر العسقلاني

– « أهل الجنة محتاجون إلى العلماء وذلك بأنهم يزورون ربهم في كل جمعة فيقول تمنوا فيلتفتون إلى العلماء فيقولون ما نتمنى فيقولون تمنوا عليه كذا وكذا فهم محتاجون إليهم في الجنة » قلت وهذا موضوع .

– « تختموا بالعقيق فإنه ينفي الفقر، واليُمْنَى أحق بالزينة » .

– « من ولد له مولود فسماه محمداً تبركاً به كان هو والولد في الجنة » .

– « قصة رحيل بلال إلى الشام ومجيئه إلى المدينة وأذانه بها وارتجاج المدينة بالبكاء لأجل ذلك » .

– « أكرموا الخبز فإن الله ختم به بركات السماوات والأرض ولا تُسْنِدوا بالخبز القصعة فإنه ما أهانه قوم إلا ابتلاهم الله بالجوع » .

– ((اللهم ارحم خلفائي قلنا ومن خلفاؤك قال الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس)) .

– ((إن في الجنة نهراً يقال له رجب ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل من صام يوما من رجب سقاه الله من ذلك النهر)) .

– ((يا آدم لولا محمد ما خلقتك)) .

ومن كتاب الأسرار المرفوعة لملا علي القاري

– ((تمكث إحداكنَّ شطر عمرها لا تصلي)) .

– ((من أكل مع مغفور له غفر له)) .

– ((ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه)) .

– ((ما صب الله في صدري شيئاً إلا صببته في صدر أبي بكر)) .

– ((لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل)) .

– ((لي مع الله وقت لا يسعني فيه غير ربي)) .

– ((قصة سيدنا عثمان وأنه أرتج عليه في خطبة الجمعة)) .

ومن كتاب المقاصد الحسنة للسخاوي

– اتق شر من أحسنت إليه .

– أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش .

– إن الله يكره الرجل البطال .

– بشر القاتل بالقتل .

– تسليم الغزالة على النبي ﷺ الذي يذكر في المدائح .

– شاوروهن وخالفوهن .

– علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل .

النقطة الثالثة : التساهل في الرواية يتنافى مع توجيه رسول الله ﷺ

إنَّ توجيهات رسول الله ﷺ وما كان عليه أصحابه ﷺ يمنعان المسلم من التساهل في الرواية، ومن صور التساهل أن يحدث المسلم بكل ما سمع وهذا يؤدي إلى الوقوع في الكذب، كما قال ﷺ : ((**كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**)) .

[مسلم / ٧]

ولو تَنَبَّه المتكلم في الدين الحريص على السلامة إلى ما كان عليه الصحابة ﷺ وما كان عليه علماء الأمة الصالحون الذين حملوا لنا هذا الدين لما سهل عليه أن يروي شيئاً من سنة حبيبه ﷺ وشريعتِه وأسسِ هذا الدين وفروعِه إلا من طريق الثقات .

فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يحضر مجلساً فِيْهِ بُشَيْرٌ الْعَدَوِيُّ فَجَعَلَ بُشَيْرٌ يُحَدِّثُ وَيَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ لا يَأْذَنُ لِحَدِيثِهِ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِ .

فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ مَالِي لا أَرَاكَ تَسْمَعُ لِحَدِيثِي أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلا تَسْمَعُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاس : ((**إِنَّا كُنَّا مَرَّةً إِذَا سَمِعْنَا رَجُلًا يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْتَدَرَتْهُ أَبْصَارُنَا وَأَصْغَيْنَا إِلَيْهِ بِآذَانِنَا فَلَمَّا رَكِبَ النَّاسُ الصَّعْبَ وَالذَّلُولَ لَمْ نَأْخُذْ مِنَ النَّاسِ إِلا مَا نَعْرِفُ**)) **[مسلم في مقدمة صحيحه]** .

وهذا أنس بن مالك ﷺ يقول: **إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:** ((**مَنْ تَعَمَّدَ عَلَيَّ كَذِبًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**)) .

[مسلم في مقدمة صحيحه]

وقال الإمام مالك بن أنس: **إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم لقد أدركت سبعين ممن يحدث قال فلان قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين وأشار إلى مسجد رسول الله ﷺ فما أخذت عنهم شيئا وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت المال لكان أمينا لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن وقدم علينا ابن شهاب فكنا نزدحم على بابه** **[التمهيد لابن عبد البر ١ / ٦٧]** .

وهذا الإمام أحمد رحمه الله تعالى بعد أن كتب الحديث الذي فيه قصة الغلام الذي احتُضِرَ ويقال له: قل: لا إله إلا الله فلا يستطيع أن يقولها في قصة طويلة، ... وفيها أن عقوقه لأمه هو السبب ..الخ، عندما عرف حال أحد رواته شطب على الحديث ولم يحدث به لأنه من رواية فائد بن عبد الرحمن وكان متروك الحديث كما ذكر ذلك عبدُ الله بن الإمام أحمد، انظر مسند الإمام أحمد . [٤ /ص/ ٣٨٢].

وهذا الحديث كَثُرَ ذكره على المنابر وفي دروس المواعظ .

النقطة الرابعة : يجب بيان الحق وإن سَخِطَ بعض الناس

قد مرت أزمنة في التاريخ المتأخر لأمتنا تَقَلَّصَ فيها علمُ الحديث واكتُفِيَ فيه بالرواية للكتب والإجازات، وابتعد فيها كثير من المتكلمين في العلم الشرعي عن الاستفادة من علوم الإسناد، وعَمَّ الضعف العلمي وقلَّ الاهتمام بالتمييز بين الصحيح والسقيم وبين الصدق والكذب ويختلف هذا الحال من بلد إلى بلد .

وتسربت بسبب ذلك إلى كلام الواعظين والخطباء كثيرٌ من الأحاديث الموضوعة التي اتفق علماء الرواية على أنها كذب، وكثيرٌ من الأحاديث المنْكَرَةِ الْمُتَّفَقِ على شدة ضعف رواتها أو وقوعهم في الكذب في الرواية .

ومِنَ المهم لأهل العلم في هذا العصر أن يقوموا بواجبهم كما قام علماء العصور السابقة بواجبهم، يبينون الصواب ويَذُبُّون الكذب عن أحاديث رسول الله ﷺ؛ لأن التقصير في هذا الواجب كتمانٌ للعلم، يجعل الحق ملتبساً بالباطل، قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ** ﴾ .

[آل عمران/ ١٨٧]

ومن المهم أن ننتبه أنه لا خيار لأهل العلم فيما كلفهم الله تعالى به؛ إذ ما عندهم من العلم أمانة يجب أداؤها لأهلها، وسيُسألون عن ذلك يوم القيامة، ويتأكد هذا الواجب كلما احتاج الناس إليه .

ولذلك أصَرَّ أبو هريرة ﷺ على الإكثار من الرواية لأجل تبيين الحق مع اعتراض بعض الناس عليه في الإكثار من الرواية .

قال أبو هريرة ﷺ في هذا الأمر: ((**إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَلَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا ثُمَّ يَتْلُو ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة/ ١٦٠] .**

إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشِبَعِ بَطْنِهِ وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ)) [البخاري / ١١٨] .

لا شك أنَّ أداءَ هذه الأمانة، والقيامَ بهذا الواجب فيه صعوبة، ولكن يسهلها إخلاص المؤمن لله، وما يراه في قلبه من صدق الأخوة والمحبة لمن ينصحهم مع تجنبه لأخطائهم، ومع ما يرجوه من ثواب الله تعالى، ومن اللقاء الطيب مع حبيبه المصطفى ﷺ على الحوض .

وهذا اللقاء مِنْ أطيب وأغلى ما يحرص عليه المؤمنون المحبون لرسول الله ﷺ ويشتاقون إلى لقائه ورؤيته كما كان هو ﷺ يشتاق إلى رؤيتهم .

الفصل الخامس

الابتعاد عن المحدثات التي حذَّرَ منها النبيُّ ﷺ

من أسباب العافية في ديننا وآخرتنا أن نَحْذَرَ من البدع، ونرغب في الابتعاد عنها، وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى ذلك فقال: **وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثاتِ الأُمُورِ، فإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ** [الترمذي/ ٢٨١٦وأبو داود/ ٤٦٠٧] .

ولكن قضية البدعة أمر فيه جانب من الغموض، ولذلك فإنه يلتبس على كثير من الناس، ولذلك كثر اختلاف الناس فيه، وتباينت آراؤهم، وكثر فيه الجدل غير المثمر .

فما هو الصواب في ذلك؟ وما هي الأمور المحدثة التي يُطلب في الشرع الابتعادُ عنها؟ وما حكم كلٍّ منها؟ .

إنَّ الناظر الموفق في أدلة الشرع يدرك أن المحدثات ليست على درجة واحدة، فبعضها محرم، وبعضها مكروه .

كما أن بعض المحدثات لا حرج على المسلم فيها، لدخولها تحت قواعد المباح، أو تحت مسمى البدعة اللغوية .

ويدرك أيضاً أنَّ بعض المحدثات تتفق في حُكْمِهِ أنظارُ أهل العلم، وتختلف في بعضها .

فيجب أن يكون موقف المسلم من تلك المحدثات مبنياً على الأسس العلمية، التي يُعِيْنُ على تحصيلها الرجوعُ إلى كلام الراسخين في العلم الذين يجب رد الأمر إليهم عندما تلتبس الأمور على غيرهم، وفي النقاط التالية إضاءاتٌ من كلام أهل العلم، أرجو الله تعالى أن ينفعنا بها .

النقطة الأولى : الخير في التمسك بالسنة واتباع السابقين الأولين

إن الخير كله في التمسك بسنة رسول الله ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين، وما كان عليه السابقون الأولون الذين تربَّوا على يد أعظم المربين ﷺ ، قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ**

لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب:٢١] وقال سبحانه: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١٠٠] .

وإن السلامة والعافية في البعد عن هذه المحدثات التي حذر منها ﷺ بقوله: ((**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُم بسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْها بالنَّواجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثاتِ الأُمُورِ، فإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**)) .

[الترمذي/ ٢٨١٦وأبو داود/ ٤٦٠٧]

وقوله ﷺ : ((**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدّ**)) .

[البخاري / ٢٥٥٠ومسلم / ١٧١٨]

النقطة الثانية : كثير من المتحدثين عن البدعة الحسنة والسيئة يتخبطون

تزايد في زماننا تَخَبُّطُ أكثر المتحدثين عن البدع والمحدثات، سواء كانوا من الذين يتساهلون ويصفون معظم المحدثات التي يميلون إليها بأنها بدعة حسنة، أو من المتشددين الذين يصفون كثيراً من الأمور المحدثة المقبولة في ميزان العلم بأنها من بدع الضلالة .

وقد أكثرَ الناسُ في هذا العصر الكلامَ في هذا الأمر، وتباين كلامهم فيها تبايناً كبيراً، وخرج عن دائرة البحث العلمي إلى الإنكار والخصومات .

ولذلك أقول لمن تنفعهم الذكرى: إنَّ من التقوى أن ينتبه أكثر المتكلمين والكاتبين في شأن البدعة الحسنة والبدعة السيئة، وأن لا يتسرعوا، **وأن يتحرروا من حكم غلبة العادات والموروثات**، وأن يرجعوا في ذلك إلى أسس العلم وإلى ما يراه الراسخون في العلم؛ لأن معظم مسائل البدعة تدخل في مسائل الاجتهاد، التي لا يسهل على غير العلماء التكلم فيها .

وقد نتج عن التكلم فيها من قبل غير المتأهلين الوقوع في الإثم بسبب إفتائهم بغير علم، حيث يُقرُّ بعضهم ما لا يصح إقراره، وينكر بعضهم ما ليس

منكراً في ميزان أهل البصائر .

ونتج بالإضافة إلى هذا الإثم آثام وآثارٌ من الصراع والخلاف غير المنضبط بالأسس والآداب الشرعية، مما أدّى إلى عداوات وخصومات لا يرضى الله تعالى بها .

والمسلم كما يُسأل عن أقواله وأفعاله يُسأل أيضاً عن الآثار التي تتركها آراؤه وأقواله وأفعاله، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ** ﴾ **[يس/ ١٢]** .

وفي النقطة التالية نُقول مضيئة في مسألة البدع والمحدثات، يمكن أن يستضيء بها المسلم قبل أن يخوض في هذه الأمور .

النقطة الثالثة: البدعة لها استعمالان

إنَّ من ينظر في حديث « **فإنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ** » وأمثاله وما فيه من معنى العموم وينظر بعد ذلك في حديث : « **مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ** » وفي قول عمر ﷺ: « **نِعْمَ الْبِدْعَةُ هَذِهِ** » **[البخاري/ ١٩٠٦]** ملاحظاً مفهوم عبارة: « **مَا لَيْسَ مِنْهُ** » التي يفهم منها تخصيصُ ذلك العموم ووجودُ مُحْدَثٍ في الدين ليس منه، ووجودُ مُحْدَثٍ آخر هو من الدين .

قد يلتبس عليه الأمر على بعض الإخوة ويظنوا وجود تعارض، ولكن الحقيقة أنه لا تعارض، ويزول الإشكال بما بينه العلماء الذين قرروا أن كلمة: (**بدعة و محدثة**) لها استعمالان:

الأول: استعمال لغوي عام وهذا يشمل كل ما يحدث في حياة الناس من الأمور الدنيوية الجديدة، ومن الأمور الدينية التي يمكن أن تقبل أو لا تقبل بميزان العلم الشرعي، وبهذا الاعتبار اللغوي الذي يراد منه الشيء الجديد يمكن تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة، وهذا يمكن أن يقال فيه: نعمت البدعة أو بئست البدعة.

يقول ابن تيمية: البدعة الحسنة عند من يقسم البدع إلى حسنة وسيئة، لابد أن يستحبها أحد من أهل العلم الذين يُقتدى بهم، ويقومَ دليلٌ شرعيٌ على استحبابها.
[انظر الفتاوى ٢٧ / ١٥٢]

الثاني: استعمال شرعي خاص وهو الأمر الديني الجديد الذي ليس له أصل في الشرع، وهذا النوع لا يكون إلا بدعة ضلالة ومحدثة سيئة، وهو الذي ينطبق عليه حديث النبي ﷺ ((**فإنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**)) [**الترمذي/ ٢٨١٦وأبو داود/ ٤٦٠٧**] .

وذكر ابن تيمية: أنَّ من يقول البدعة الشرعية كلها مذمومة يجعل قول عمر في التراويح: **نعمت البدعة هذه** باعتبار وضع اللغة، فالبدعة في الشرع عند هؤلاء ما لم يقم دليل شرعي على استحبابه [**انظر الفتاوى ٢٧ / ١٥٢**] .

وقال ابن حجر في فتح الباري مبيناً للاستعمال الشرعي: **والمحدَثاتُ بفتح الدال جمعُ مُحْدَثَةٍ، والمراد بها ما أُحدث وليس له أصل في الشرع ويسمى في عرف الشرع بدعة** اهـ .

ثم بين أنَّ ما أُحْدِثَ وله أصل شرعي لا يكون بدعة في اصطلاح الشرع فقال: **وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة** اهـ .

وهذا يبين لنا أن ما له أصل ليس ببدعة في اصطلاح الشرع، وإن سُمِّيَ بدعة من حيث اللغة .

ويؤكد هذا ما نقله ابن حجر عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أنه قال: **البدعة بدعتان محمودة ومذمومة فما وافق السنة فهو محمود وما خالفها فهو مذموم** .

ثم ما نقل عنه أنه قال أيضاً: **المحدثات ضربان: ما أحدث يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً أو إجماعاً فهذه بدعة الضلال وما أحدث من الخير لا يخالف شيئاً من ذلك فهذه محدثة غير مذمومة** اهـ [**فتح الباري ١٣/ ٢٥٣**] .

وإذا صح أن نطلق كلمة (**بدعة و محدثة**) على أمر محمود في الشرع غيرِ مذموم فإنه يلزم من ذلك أنَّه لا يصح أن نطلق الإنكار على كل محدثة، وأنَّ قوله ﷺ: ((**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثاتِ الأُمُورِ، فإنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**)) المراد به ما أحدث يخالف جميع الأدلة الشرعية، من الكتاب والسنة والإجماع وغيرها، أما ما لا يخالف فلا يُنكر، ولا يكون بدعة في اصطلاح الشرع .

ولذلك قال ابن حجر بعد بيان ما تقدم: **والمراد بقوله كل بدعة ضلالة ما أحدث ولا دليل له من الشرع بطريق خاص ولا عام** [**فتح الباري ١٣/ ٢٥٤**] .

وقال ابن حجر أيضاً في باب فضل من قام رمضان، متحدثاً عن البدعة:

والبدعة أصلها ما أحدث على غير مثال سابق، وتطلق في الشرع في مقابل السنة، فتكون مذمومة والتحقيق أنها إن كانت مما تندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنة، وإن كانت مما تندرج تحت مستقبح في الشرع فهي مستقبحة، وإلا فهي من قسم المباح، وقد تنقسم إلى الأحكام الخمسة [فتح الباري ٤/ ٢٥٣] .

النقطة الرابعة : التمييزُ بين أكثر البدع والمحدثات من عمل المجتهدين

من خلال ماتقدم يتبين لنا أن التمييز بين كثير من المحدثات لا يسهل على المبتدئ في طلب العلم، ومن لم يبدأ بطلب العلم أكثر عجزاً عن ذلك .

ويدل على ذلك الأمور التالية :

١- ما تقدم معنا أنَّ المحدثات التي لا تخالف كتاباً ولا سنةً ولا أثراً ولا إجماعاً هي محدثات غيرُ مذمومة، أما المذمومة فهي المحدثات التي لا دليل لها من الشرع بطريق خاص ولا عام .

وإنَّ انتفاء الدليل في مسألةٍ ما قد يكون واضحاً، وقد يكون غامضاً يحتاج لبذل الجهد في البحث، وكثيراً ما يكون من مسائل الاجتهاد .

٢- وبعد الاجتهاد قد يتفق المجتهدون وقد يختلفون، وقد يتوقف بعض المجتهدين ويقول في المسألة: لا أدري .

وتوقف الأئمة المجتهدين في بعض المسائل واضح مشهور عند كثير عند السلف والأئمة، ومن الأمثلة على ذلك قول القرطبي في تفسيره عند كلامه عن الاستعاذة ١ / ٨٧ : وأما المقرئون فأكثروا في هذا من تبديل الصفة في اسم الله تعالى كقول بعضهم: أعوذ بالله المجيد من الشيطان المريد ونحوَ هذا مما لا أقول فيه نعمت البدعة ولا أقول إنه لا يجوز اهـ .

فهو في مسألة قول القراء: أعوذ بالله المجيد من الشيطان المريد، ونحو ذلك لم يصل إلى اعتبارها حسنة أو سيئة فلم يستحسنها ولم ينكرها .

٣- وقد يَعْتَبِرُ المجتهد المسألة التي عُرضت عليه بدعةً، لأنه لم يجد لها دليلاً،

وقد يَرى مجتهدٌ آخر فيها دليلاً فلا يراها بدعة، وعند ذلك تخرج القضية من إطار إنكار المنكر، إلى إطار البحث العلمي الذي لا يصح أن يتكلم فيه إلا من كان علمه واسعاً ونظره عميقاً، وإذا تكلم أهل العلم فيما يُختلف فيه فهم يتكلمون من باب البحث العلمي، لا من باب إنكار المنكر .

٤- كما أنَّ من الممكن أن تكون القضية بعد الاجتهاد من قبيل المكروه التَّنْزيهي لا من قبيل الْمُحَرَّم .

بعض البدع مكروه تنزيهاً

ووجود بدعة سيئة مكروهة لا يستغربه العلماء؛ لأنَّ مخالفة النهي الصريح في حديث صحيح قد تكون محرمة لأنها تنطبق عليها قواعد الحرام كنكاح المتعة، وقد تكون مخالفة النهي الصريح مكروهة لأنها تنطبق عليها قواعد المكروه كالشرب واقفاً، فإذا كان النهي الصريح هكذا، فإنَّ البدعةَ المخالفةَ كذلك؛ فبعض البدع المخالفة ليست من المنكر،ولا يجب إنكارها، بل يُرْشَدُ إلى أن الأولى تركُها، لأنه لا يزيد أمرها على أنها مكروهة .

الفصل السادس

الأولياء والكرامات

ارتبطت عند كثير من الناس كلمة الأولياء بالكرامات، واختلفتْ تصوراتُ الناس عـن ذلـك وتنوعـت، وقامـت في أذهـان بعـض المسـلمين تصـوراتٌ للولايـة والأوليـاء والكرامات غريبة عجيبة، لم تُبْنَ على الأدلة الشرعية المعْتَبَرَةِ ولم يذكرها رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه ﭬ ونتجت عن تلك التصورات أنواع من السلوك والعمل غير موافقة للشرع، تُبعِد المسلم عن الصراط المستقيم .

ولما كان من الضروري أن تكون تصورات المسلم للأمور وآراؤه فيها مبنيةً على أسس العلم المتينة التي أرشدنا إليها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فلا يجوز للمسلم أن يكون له رأيٌ ولا موقفٌ أو عملٌ إلا موافقاً لهدي النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [**الحجرات/ ١**] قال القرطبي: أي لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله وقولِ رسوله ﷺ وفعلِه فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا، ومن قدم قولَه أو فعلَه على الرسول ﷺ فقد قدمه على الله تعالى، لأن الرسول ﷺ مبلغ عن الله عز وجل، فما هي النظرة الصحيحة في هذا الأمر ؟ .

النقطة الأولى: تعريف الأولياء

الأولياء هم الذين اجتمع فيهم وصفان عظيمان ذكرهما الله تعالى في كتابه فقال: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُواْ يَتَّقُونَ** ﴾ [**يونس/ ٦٢-٦٣**] فكل من وجد منه الإيمان مع التقوى فهو من الأولياء .

والإيمان والتقوى درجات، وكذلك الولاية درجات، والميزان في ذلك من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

ميزان الإيمان والولاية

بعد صحة الإيمان ببنائه على الأسس التي تقدمت في الفصل الأول، فإنَّ الميزان الذي توزن به قوة إيمان الإنسان وولايته لله سبحانه وتعالى هو الصفات والأحوال والأعمال التي مدح الله تعالى أهلها في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ .

وكلما تحقق الإنسان بهذه الصفات والأحوال والأعمال أكثرَ كان إيمانه وولايته أعظمَ [٤٢] .

وأكمل الناس في هذا هم الذين ربَّاهم أعظم وأكمل المربين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الذين بلغوا من الخير بفضل الله تعالى عليهم في صحبة رسوله ﷺ وتربيته لهم إلى أن قال عنهم رسول الله ﷺ : ((**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**)) **[البخاري / ٣٤٧٠]** .

فخيرُ هذه الأمة وأكابرُ أوليائها هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين يسر الله لهم من تزكية النبي ﷺ وتربيته لهم ما لم يتيسر لغيرهم، وخيرُهم وأكملُهم الخلفاءُ الراشدون ﵃ ، ولهذا الفضلِ جعلهم اللهُ تعالى قدوةَ الأمة ومرجعَها بعد نَبِيِّها ﷺ .

فإذا أردت الولاية والصلاح، وإذا رغبت في صحةِ وكمال العلم والعمل في ميادين الخير، فاجعلهم بعد النبي ﷺ المثلَ الأعلى، واقتبس من أحوالهم في التلاوة والتدبر، وفي الدعاء والتهجد، وفي أولويات جوانبِ التفقه في الدين، وجوانبِ العلم والعمل، وأحوال القلوب والنفوس .

استغفارٌ كاستغفارهم وسجودٌ كسجودهم وزهدٌ واستصغار للنفس، وتبتلٌ وعدم ملاحظة الخلق بالعمل الصالح من أهم أسباب الولاية .

---

(٤٢) هذه الصفات والأحوال والأعمال ميزانٌ يوزن به الإيمان قوةً وضعفاً .

فطريق الولاية لا يحتاج إلى تكلف وتعقيد في الأذكار والأدعية .

صلاةٌ وتسليمٌ على رسول الله ﷺ بكلمات قليلة مفهومة من عبد متحقق بالذل والافتقار إلى الله تعالى، يرافقهما قلبٌ ممتلئٌ بالحب والأدبِ، وممتلئٌ بالرغبةِ في المتابعةِ وفي الثبات إلى اللقاء معه ﷺ على الحوض خيرٌ من كلمات كثيرة مُتَكَلَّفَةٍ مُعَقَّدَةٍ غيرِ مفهومة، يتوهم المتكلم بها أن لها أسراراً خفية وأنها تنتج أحوالاً سنية، وكذلك بقية الأذكار .

قد يتوهم بعض الإخوة المتعبدين والمنتسبين إلى الصالحين أن لهم خصوصيات في أذكارهم لا تليق ولا تناسب من يَظُنُّون أنهم دونهم، ولكنَّهم لم يعرفوا أنَّ أذكارَ الصحابة ﷺ خير من أذكارهم، واستغفارَهم وبكاءهم خيرٌ مما يتوهمون من خصوصياتهم ودرجاتهم ومقامات قربهم .

إذا خرج أحدنا من هذه الدنيا مغفوراً له فهنيئاً له، وهذا يا أخي ما أرجوه لي ولك .

إن قال أحدنا مستغفراً: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وكان متحققاً بالشعور بظلمه الكثير الكبير فهذا من خير أوصافه وأحواله، ومهما شعر بظلمه لنفسه فإنه لن يصل إلى عُشْرِ مِعْشارِ شعور الصديق ﷺ عندما عَلَّمَهُ رسول الله ﷺ هذا الاستغفارَ، أرى أنني محتاج إلى إصلاح استغفاري، فهل أنت مثلي تحتاج إلى إصلاح استغفارك .

الخير لي ولك أن نُشفق على أنفسنا ولنترك أوهامَنا، وحُسْنَ الظن بأنفسنا، ولندع الكلام والأوهام، ولنكتف بعلم الله تعالى بنا، ولنستعن به في اكتشاف عيوبنا وذنوبنا، وفي إصلاحها .

النقطة الثانية : تعريف الكرامة والمعجزة

الله تعالى وضع قوانين عامة في نظام هذا الكون، ربط فيها الأسباب بالمسببات، وجعل مع هذه القوانينِ العامةِ قوانينَ أخرى تخرق بها بعض تلك القوانين العامة،

فالأجسام التي ترتفع عن سطح الأرض في الهواء تَنْزِل إلى الأرض بقانون الجاذبية، ولكن هذا القانون يخرق بقانون آخر يحمي الطيور والطائرات من السقوط، وهذا جزء من القوانين والطبائع التي طبع الله تعالى الكائنات عليها، التي لا قدرة للعباد على مخالفتها .

وإذا كان العباد عاجزين عن خرق قوانين الطبيعة، فإن الذي وضع هذه القوانين بقدرته المطلقة سبحانه وتعالى قادرٌ على خرقها، فإذا شاء خرقها .

ومن جوانب هذا الخرق معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء .

فإذا ظهر الأمر الخارق للعادة الطبيعية على يد نبي سميت معجزةً، ومعجزاتُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرة مشهورة .

وإن ظهرت على يد إنسان مؤمن صالح سميت كرامة .

فنبع الماء من أصابع سيدنا محمد ﷺ معجزة .

وعيسى ﷺ عندما نطق بُعَيْدَ ولادته كان نُطقه كرامةً لأمه عندما قال:

﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم / ٣٠-٣٣].

ومثل ذلك نطقُ الغلام الذي حملت به أمه من الزنا، في قصة جُرَيْجٍ عندما تعرضت له امرأة ودعته إلى نفسها فأبى، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها، فولدت غلاماً، فقالت: هو من جريج، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا إلا من طين .

وهذه القصة ذكرها النبي ﷺ **[البخاري / ٣٢٥٣]** وفيها نطقُ هذا الغلام، وذلك كرامةٌ لجريج .

النقطة الثالثة : لا تلازم بين الولاية والأمر الخارق للعادة

لا يلزم من وجود الولاية في شخص أن تظهر على يديه أمور خارقة للعادة، فالوليُّ هو المؤمن التقيُّ، وليس الأمر الخارق للعادة جزءاً من الإيمان ولا جزءاً من التقوى، والكافر كافر والفاسق فاسق وإن ظهرت على يديه أمور خارقة للعادة .

ونحن نرى أموراً خارقة للعادة على يد أناس غير مسلمين في الهند وغيرها، ونرى أموراً خارقة للعادة على يد أناس مسلمين فاسقين يتركون الفرائض ويفعلون المحرمات، والنبي ﷺ أخبرنا عن ظهور أمور خارقة للعادة على يد الدجال، وهو من أكفر الكافرين وأكثر المفسدين شراً .

وقد رأينا في مجتمعنا بعداً عن معرفة هذه الحقيقة، حيث يصف كثير من الإخوة إنساناً بالولاية، ويستدل على ذلك بما يرويه من هذه الأمور الخارقة، وكثيرٌ منها عند التحقيق لا وجود لها، أو يتوهمها خارقة وليست كذلك، ومع ذلك إن وجدت وكانت خارقة فإنها ليست دليلاً على الولاية لما تقدم .

النقطة الرابعة : أعظم الكرامات الاستقامة على هدي النبي ﷺ

أعظم الكرامات في هذه الحياةِ التحققُ بالإيمان والتقوى والاستقامةُ على هدي النبي ﷺ مما يحقق للعبد العبوديةَ لله تعالى حتى يعيش عبداً صالحاً طيباً إلى أن تأتيه منيته وتتوفاه الملائكة مسلماً قد ألحقه الله تعالى بالصالحين .

وهذا هو الشغل الشاغل لقلوب الصالحين، وفي مقدمتهم سيدنا محمد ﷺ فعن شهر بن حوشب، قال: قلتُ لأُمّ سلمة رضي اللّه عنها: يا أُمّ المؤمنين، ما أكثرُ دعاء رسول اللّه ﷺ إذا كان عندكِ؟ قالت: كان أكثرُ دعائه: « **يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّت قَلْبي على دِينكَ** » [الترمذي / ٣٥٢٢ وحسنه] .

وانظر إلى سيدنا يوسف ﷺ كيف كانت دعوته التي ذكرها الله تعالى عنه في آخر قصته، وهي رغبته أن يموت مسلماً وأن يلحقه الله تعالى بالصالحين، قال تعالى: ﴿ **رَبِّ قَدْ**

آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف/ ١٠١] .

وقد كان الصالحون لا يلتفتون إلى هذه الخوارق ولا يهتمون بها، لانشغال قلوبهم بخشية الله تعالى والخوف من سوء الحساب، والاهتمام بإصلاح أحوالهم، والتوبة إلى ربهم، ومهما صلح حال الواحد منهم فإنه يرى نفسه مذنباً مقصراً، إذا صلّى وجدته بعد الصلاة مستغفراً يملأ الشعورُ بالتقصير وطلبُ المغفرة قلبَه العامر، وإذا قام الليل وجدته في الأسحار باكياً يرجو ويسأل عفو الله تعالى ومغفرته، إلى ما هنالك من المعاني الإيمانية التي تملأ قلوبهم، فلا فراغ فيها للاهتمام بالكرامات ونحوها .

وإذا ظهر على يد أحدهم شيء من هذا عَدَّهُ فتنةً وبلاءً وكتمه وستر نفسه، وقد ذكر الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله تعالى عن هؤلاء أنَّ أحدهم يستتر من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض .

ومن حال هؤلاء الصالحين أنهم إذا جلسوا مع الناس يحدثونهم حدثوهم بهدي القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ والعلم الشرعي ولم يكونوا يشغلونهم بالحكايات المرتبطة بخوارق العادات، انظر إلى كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أحمد الرفاعي رحمهما الله تعالى في الفتح الرباني والبرهان المؤيد وقارنه بحال الذين يجلس أحدهم الأوقات الطويلة لا حديث عنده إلا عن فضائل الشيخ وكراماته .

النقطة الخامسة : لا نجزم بولاية إنسان إلا عن طريق الوحي الإلهي

عَلَّمَنَا الإسلام أن لا نتكلم إلا بعلم، وولايةُ الإنسان لله تعالى مرتبطةٌ بظاهره وباطنه، ونحن نَطَّلِعُ على الظاهر ونحكم به، أما الباطن فحكمه عند الله تعالى وحده، نستطيع أن نصف إنساناً بالمحافظة على الصلاة في المسجد ونجزم بذلك، لأننا نراه، ولا نستطيع أن نصف إنساناً بالإخلاص مع الجزم بذلك، لأننا لا نَطَّلِعُ على قلبه، ويمكن أن نظن الإخلاص فيه ظناً .

وبناءً على هذا فإنَّ من الخطأ أن نجزم في إنسان أنه وليٌ لله تعالى، ويسعنا أن نظن فيه أنه ولي ولا حرج علينا في ذلك، مع حسن الظن وما يبنى عليه من الاحترام ونترك السرائر إلى الله تعالى .

ومثله أن نظن في مسلم أنه من أهل الجنة، ونظن أن الله يكرمه، ونحو ذلك، وهذا ما علمه النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم .

فعندما وصف سعد رضي الله عنه رجلا من الصحابة بالإيمان، والإيمانُ باطنٌ، أرشده ﷺ أن يصفه بالإسلام لأنه ظاهر، وذلك في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه « **أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ فِيهِمْ قَالَ سَعْدٌ: فَتَرَكَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُعْطِهِ وَهُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيّ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ! مَا لَكَ عَنْ فُلاَنٍ؟ فَوَالله إِنّي لأَرَاهُ مُؤْمِناً، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : أَوْ مُسْلِماً، قَالَ، فَسَكَتُّ قَلِيلاً، ثُمّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ مَا لَكَ عَنْ فُلاَنٍ، فَوَالله إِنّي لأَرَاهُ مُؤْمِناً. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: أَوْ مُسْلِماً، قَالَ، فَسَكَتّ قَلِيلاً ثُمّ غَلَبَنِي مَا عَلِمْتُ مِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ! مَا لَكَ عَنْ فُلاَنٍ، فَوَالله إِنّي لأَرَاهُ مُؤْمِناً، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: أَوْ مُسْلِماً، إِنّي لأُعْطِي الرّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبّ إِلَيّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يُكَبّ فِي النّارِ عَلَى وَجْهِه** » [البخاري/ ٢٧ومسلم/ ١٥٠] .

قال النووي رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث: وأما قوله ﷺ : أو مسلماً، فليس فيه إنكار كونه مؤمناً، بل معناه النهي عن القطع بالإيمان، وأن لفظة الإسلام أولى به، فإن الإسلام معلوم بحكم الظاهر، وأما الإيمان فباطن لا يعلمه إلا الله تعالى اهـ .

وكذلك عندما مات عثمان بن مظعون رضي الله عنه وهو أول مهاجرٍ مات في المدينة المنورة وكان الأنصار رضي الله عنهم رأوا من صلاحه ما جعل أم العلاء وهي من الأنصار المبايعات تقول عندما دخل النبي ﷺ بعدما غُسِّلَ وكفن عثمان رضي الله عنه : « **رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟ فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا** » [البخاري / ١١٨٦] .

وعن أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قَالَ: أَثْنَى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلَانًا وَاللَّهُ حَسِيبُهُ وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ

[البخاري/٢٥١٦ ومسلم /٣٠٠٠]

قال النووي : قوله: (**ولا أزكي على الله أحداً**) أي لا أقطع على عاقبة أحد ولا ضميرِه، لأن ذلك مُغَيَّبٌ عَنَّا، ولكن أحسب وأظن، لوجود الظاهر المقتضي لذلك اهـ .

النقطة السادسة : بطلان توهم أن بعض الأولياء يتصرفون في الكون

إن ما يتوهمه بعض الناس أن لله عباداً يتصرفون في الكون، وأنهم وصلوا إلى مرتبة من الولاية، يعلمون كل شيء[٤٣] ويقولون للشيء كن فيكون، عقيدةٌ باطلة خطيرة من أقبح الباطل، تنافي عقيدةَ الإيمان بالله تعالى وتوحيدَه .

وهؤلاء الذين وصلوا بسبب جهلهم في أسس هذا الدين إلى هذا الضلال المبين يربطون هذا الباطل بالأولياء وبأهل الله، وربما انتسبوا إلى بعض أهل العلم والفضل والدعوة والإصلاح كالشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى أوغيره، ومن اطلع على ترجمة هذا الشيخ الفاضل في كتب الثقات رأى أشدَّ التناقض بين سيرته وما كان يدعو إليه من جهة وبين هذا الباطل الذي يتبرأ منه هذا الشيخُ وأمثالُه من ورثة النبي ﷺ من جهة أخرى، ويتبرأ منه جميعُ المؤمنين .

وإذا اطلعت على ما كُتِبَ من مجالس الشيخ عبد القادر ودروسِه وجدت أكثرَ ما يركز عليه في توجيهه لتلاميذه وأتباعه توحيدَ الله تعالى وربطَ القلوب به، وفطامَها عن التعلق بالأسباب [٤٤] .

---

(٤٣) وقد حكم بعض أهل العلم بكفر من تزوج بشهادة الله ورسوله، لأنه اعتقد أن رسول الله ﷺ عالم الغيب كما في الدرِّ وحاشية ابن عابدين ٣/ ٢٧ وخالف في التكفير بعضهم لأدلة قامت عندهم، ترتبط بأن الله أَطْلَعَ الرسل عليهم الصلاة والسلام على بعض الغيب .

ومن تنفيره عن التعلق بالأسباب قوله في كثير من توجيهاته: **يا مشركون بالأسباب**، ومن كلامه في ربط القلوب بالله تعالى: **اعلموا أن الأشياء مُحَرَّكَةٌ بتحريكه ومُسَكَّنَةٌ بتسكينه** .

ولولا أني أرى انتشاراً لمثل هذا الغلوِّ الخطير لما كان من الحكمة أن أبين بطلانه، لئلا أشغل الإخوة القارئين بما لا حاجة إليه، ولكن هذا الكلام وهذه الأفكار الخطيرة موجودة ومنتشرة، فمن الضروري التحذير منها .

النقطة السابعة : لا يصح اعتبار المجنون أو المعتوه [(٤٥)] من الأولياء

شاع بين كثير من الناس أن ينظروا إلى بعض المجانين والمعتوهين بأنهم أولياء، بل يتخذونهم مرشدين لهم، يطيعونهم ويخشون من مخالفتهم، ويستشيرونهم في الأمور المهمة المتعلقة بالجانب الديني والدنيوي، وهذا نهج غير صحيح، فالمجنون والمعتوه كلٌّ منهما غيرُ مكلف، ولا يوصف بإيمان ولا كفر، ولا طاعة ولا عصيان، وإذا كان الوليُّ هو المؤمنَ التقيَّ فكيف يوصف المجنون بالولاية وهو غير مكلف .

لا حرج على الإنسان أن يرحم هؤلاء المجانين وأن يكرمهم ويساعدهم .

بل وأن ينظر إلى أنهم خير منه، لا على أنهم أولياء، بل على أنهم لا ذنوب لهم لأنهم غير مكلفين؛ فهو عنده ذنوب وسيئات، وهم طاهرون منها .

وقد أدرك الألوسي في تفسيره **روحِ المعاني** بطلانَ نظرة هؤلاء إلى المجانين فقال محذراً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ** ﴾ : **وغالب الجهلة اليوم على أن الولي هو المجنون ويعبرون عنه بالمجذوب، صدقوا ولكن عن الهدى، وكلما أطبق جنونه**

---

(٤٤) إنَّ مَنْ قرأ ترجمة الشيخ الجيلاني في كتب أهل الغلو والجهالة ممن ينتسبون إليه، أو من أحاديثهم لا يجد الصورة الصحيحة للشيخ الجيلاني رحمه الله تعالى، فهناك فرق كبير جداً بين ما يتصوره الجاهلون من المنتسبين إليه وبين ما كان عليه الشيخ من الحال الطيب والعمل الصالح .

(٤٥) قال في مختار الصحاح: المِعْتُوهُ الناقص العقل .

وكثر هذيانه واستقذرت النفوس السليمة أحواله كانت ولايته أكمل وتصرفه في ملك الله تعالى أتم [روح المعاني ج: **٩** ص: **٢٠٢]** اهـ .

الفصل السابع

ذكر الله تعالى

النقطة الأولى: ضرورة الذكر وفضله وفضل الاجتماع عليه

إن عمارة القلوب وصلاحَها لا يكونان إلا بذكر اللَّه تعالى، فذكرُ اللَّه تعالى حياةٌ، والغفلةُ عن اللَّه موت، قال عليه الصلاة والسلام: « **مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّت** » [البخاري : ٦٠٤٤] .

والقلوب لا تطيب ولا تطمئن ولا ترتاح إلا بذكره، قال عز وجل : ﴿ **أَلاَ بِذِكْرِ اللَّه تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد / ٢٨] .

والقدوةُ الأولى في كثرة الذكر هو سيدُنا محمد ﷺ ، فعن عَائِشَةَ رضي اللَّه عنها قَالَتْ : « **كَانَ النَّبِيّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّه عَلَى كُلّ أَحْيَانِهِ** » [مسلم / ٣٧٣] .

وإن من أفضل الأعمال الاجتماعَ على ذكر اللَّه سبحانه وتعالى .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **يَقُولُ اللَّه عَزّ وَجَلّ: أَنَا عِنْدَ ظَنّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ** » [البخاري ومسلم] .

وإذا كان ذكر الله تعالى يحصل بتلاوة القرآن ومدارستِه أو بالتفقهِ في الدين فإنه يحصل بالتسبيحِ والتحميد والتكبير والتهليل ونحو ذلك من الأذكار والأدعية.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: « **إِنّ للَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلاَئِكَةً سَيّارَةً، فُضُلاً، يَبتَغُونَ مَجَالِسَ الذّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِساً فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِأَجْنِحَتِهِمْ، حَتّى يَمْلؤُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السّمَاءِ الدّنْيَا، فَإِذَا تَفَرّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السّمَاءِ .**

قَالَ : فَيَسأَلُهُم اللَّه عَزّ وَجَلّ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ : مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الأَرْضِ ، يُسَبّحُونَكَ وَيُكَبّرُونَكَ وَيُهَلّلُونَكَ وَيُمَجّدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ .

قَالَ : وَمَاذَا يَسْأَلُونِي ؟ قَالُوا : يَسْأَلُونَكَ جَنّتَكَ .

قَالَ : وَهَلْ رَأَوْا جَنّتِي ؟ قَالُوا : لاَ، أَيْ رَبّ .

قَالَ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنّتِي ؟ قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ .

قَالَ : وَمِمّ يَسْتَجِيرُونَنِي ؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ، يَا رَبّ .

قَالَ : وَهَلْ رَأَوْا نَارِي ؟ قَالُوا : لا .

قَالَ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي ؟ قَالُوا : وَيَسْتَغْفِرُونَكَ .

قَالَ : فَيَقُولُ : قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَجَرْتُهُمْ مِمّا اسْتَجَارُوا.

قَالَ : فَيَقُولُونَ : رَبّ فِيهِمْ فُلاَنٌ، عَبْدٌ خَطّاءٌ، إِنّمَا مَرّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ .

قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمُ الْقَوْمُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُم » .

[البخاري : ٦٠٤٥ ، ومسلم / ٢٦٨٩]

النقطة الثانية : شروط الذكر المقبول

كلما كان الذكر موافقاً لهدي النبي ﷺ ولهدي أصحابه ﷺ كان مثمراً ومقبولاً عند الله تعالى .

وأول ما تجب مراعاته ما هو شرط للقبول، وهو أمران:

الأول: الإخلاص، فمن المعروف أن الرياء يبطل ثواب الأعمال، والأدلةُ على ذلك كثيرة، ومنها حديث الصحيحين: « **إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى** » .

والثاني: أن يكون الذكر موافقاً لشرع النبي ﷺ ومن الأدلة على ذلك حديث الصحيحين أيضاًَ: « **مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَد** » .

فإذا كان الذكر مخالفاً للشرع فلا يكون مقبولاً .

ومن الأمثلة على ذلك ما يقوم به بعض الإخوة من ذكرٍ يريدون به التقرب إلى الله تعالى ويكون ذكرهم مخالفاً لتوجيهات الشرع، عندما يتعدون في نطقهم باسم الله تعالى عما يجب لهذا الاسم من النطق الصحيح والتعظيم، فيقولون في ذكرهم: (آهْ) أو (أهْ) أو نحوَ ذلك .

الكلام على حديث: (دَعُوهُ يَئِنُّ؛ فإن الأنين اسم من أسماء الله تعالى)

وعندما يُنصحون بإصلاح هذا الخلل يزعمون أن كلمة (آهْ) اسم من أسماء الله تعالى ويدَّعُون أن عندهم دليلاً على ذلك وهو حديث: « **دعوه يئن، فإن الأنين اسم من أسماء الله تعالى يستريح إليه العليل** » وربما قوَّى أحدهم كلامه فذكر أن هذا الحديث موجود في الجامع الصغير للسيوطي، نعم ذكره السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه، وعزاه إلى كتاب التدوين في تاريخ قزوين[٤٦]، للرافعي .

---

(٤٦) **مما ينتفع به طالب العلم أن يتنبه إلى الأمور التالية:**

أولاً: أن يعلم أن كتاب الجامع الصغير لا تصلح كل أحاديثه للاحتجاج بها، ولا للعمل ولو في فضائل الأعمال، لأن كثيراً منها لا يتحقق فيه شروط العمل بالضعيف، ولا الشرط الذي ذكر السيوطي نفسُه في تدريب الراوي أنه متفق عليه، وهو أن لا يشتدَّ ضعفه، قال في التدريب: (**وذكر شيخ الإسلام له ثلاثة شروط أحدها أن يكون الضعف غير شديد فيخرج من انفرد من الكذابين والمتهمين بالكذب ومن فحش غلطه – نقل العلائي الاتفاق عليه – الثاني أن يندرج تحت أصل معمول به، الثالث أن لا يعتقد عند العمل به ثبوته بل يعتقد الاحتياط اهـ**

ثانياً: أن يعلم أن في **الجامع الصغير** أحاديث كثيرة شديدة الضعف، وأن السيوطي لم يلتزم بما ذكره في مقدمة هذا الكتاب من أنه لا يذكر في كتابه حديثاً انفرد به وضاع أو كذاب حيث قال: وصُنْتُه عما تفرد به وضاع أو كذاب اهـ قال المناوي في **فيض القدير**: أيْ اتَّهَمَهُ جهابذة الأثر بوضع الحديث على النبي ﷺ أو الكذب، ثم قال المناوي: وصيغة المبالغة هنا غير مرادة إذ غرضه صونه حتى عمن لم يعهد عليه سوى وضع حديث واحد أو كذب ولو في لفظة واحدة، اهـ هذا وقد وجد في كتابه أحاديث موضوعة كثيرة، وكثير منها حَكَمَ عليها السيوطيُّ نفسُه بالوضع في كتبه الأخرى .

ولعل السيوطي رحمه الله تعالى أراد تمحيص كتابه ومراجعته بعدما كتبه فلم يتيسر له ذلك، وتوفي قبل أن يعيد النظر في كتابه هذا وفي كتب أخرى تحتاج إلى إعادة النظر، ولعل السبب في هذا الخلل كثرةُ مؤلفاته رحمه الله تعالى .

ومن الأحاديث التي ذكرها في الجامع الصغير وهي مروية من طرق في أسانيدها كذاب أو متهم بالكذب الأحاديث التالية:

١- اتخذوا الديك الأبيض؛ فإن دارا فيها ديك أبيض لا يقربها شيطان ولا ساحر .

٢- اتخذوا هذه الحمام المقاصيص في بيوتكم؛ فإنها تلهي الجن عن صبيانكم .

٣- أترعون عن ذكر الفاجر أن تذكروه؟ فاذكروه يعرفه الناس .

٤- إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علما يقربني إلى الله تعالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم .

٥- إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه .

٦ - إذا جامع أحدكم زوجته أو جاريته فلا ينظر إلى فرجها؛ فإن ذلك يورث العمى

٧- إذا خاف الله العبد أخاف الله منه كل شيء، وإذا لم يخف العبد الله أخافه الله من كل شيء .

٨- إذا خطب أحدكم المرأة فليسأل عن شعرها، كما يسأل عن جمالها، فإن الشعر أحد الجمالين .

٩- إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام، وإذا سلم رمضان سلمت السنة .

١٠- اللهم ارحم خلفائي الذين يأتون من بعدي، الذين يروون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس .

بل في الجامع الصغير أحاديث حكم السيوطي نفسُه عليها بالوضع فيما أقر فيه ابنَ الجوزي في كتابه "اللآلئ المصنوعة"، أو فيما زاده على ابن الجوزي وذكره في "ذيل الموضوعات" وبعض هذه الأحاديث تجدها إمَّا في الفصل الأول وإما في الفصل الثالث من من أبواب "تنْزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة" فلا يصح قبولها ولا روايتها ولا العمل بها، وإن كانت موجودة في الجامع الصغير .

ومن ذلك الأحاديث التالية :

١- آل القرآن آل الله .

٢- اتبعوا العلماء فإنهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة .

٣- أكرموا الخبز؛ فإنه من بركات السماء والأرض، من أكل ما سقط من السفرة غفر له .

٤- تختموا بالعقيق، فإنه ينفي الفقر .

٥- شراركم عزابكم، ركعتان من متأهل خير من سبعين ركعة من غير متأهل .

ولكن الحديث ليس بحجة لسببين:

الأول: لأنه ضعيف لا تقوم به حجة .

ولذلك قال المناوي في شرحه لهذا الحديث: « **فإن الأنين اسم من أسماء اللّه تعالى** »: أي لفظ آه من أسمائه، لكن هذا لم يرد في حديث صحيح ولا حسن، وأسماؤه تعالى توقيفية اهـ .

الثاني: أنَّ لفظ (آهْ) لم يرد ذكره في هذا الحديث الضعيف، وإنما ورد لفظ (الأنين)، والأنين مصدرٌ لفعل (أنَّ يَئِنُّ) قال في المختار: أنَّ الرجل من الوجع يئن

٦- قبضات التمر للمساكين مهور الحور العين .

٧- أربع من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، والحرص، وطول الأمل .

٨- شهادة المسلمين بعضهم على بعض جائزة، ولا تجوز شهادة العلماء بعضهم على بعض لأنهم حُسَّدٌ .

٩- تذهب الأرض كلها يوم القيامة إلا المساجد فإنها ينضم بعضها إلى بعض .

١٠- حامل كتاب اللّه تعالى له في بيت المسلمين في كل سنة مائتا دينار .

١١- خير طعامكم الخبز وخير فاكهتكم العنب .

١٢ - دعاء الوالد لولده كدعاء النبي لأمّته .

ثالثاً: أن يعلم أن كتب التاريخ والتراجم كتاريخ قزوين للرافعي، وتاريخ بغداد للخطيب، وتاريخ دمشق لابن عساكر، عندما يذكر فيها أحاديث فإن هذه الأحاديث لا تذكر للاحتجاج ولا للعمل، ومن شأن مؤلفي هذه الكتب أن يذكروا تراجم من يرون ذكر تراجمهم من الثقات وغيرهم، وكثيراً ما يذكرون أحاديث رواها من يذكرون ترجمته وإن كانت موضوعة أو شديدة الضعف، يعرف هذا من استضاء بضياء العلم، أما المبتعد عن العلم فيقول محتجاً على ثبوت ما يرويه من الحديث: هذا الحديث رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، وذاك الحديث رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، والحديث الآخر رواه الرافعي في تاريخ قزوين .

فعلى طالب العلم أن يتذكر أنَّ هذه الكتب فيها أحاديث موضوعة كثيرة، لأنها كما تحوي تراجم الثقات والصالحين من ورثة النبي ﷺ فإنها تحوي تراجم المتروكين والكذابين.

بالكسر أنِيناً وتأناناً اهـ ثم إنَّ الأنين له ألفاظ كثيرة، ذكر في القاموس المحيط منها بضعة عشر لفظاً، منها: أوْهُ ، وأوهَ، وأوِّهِ، وأوَّه، وآوُوه، وآهِ، وآهٍ، وآوِ، وآوٍ، وأوتاه، وآويَّاه، كل هذه الألفاظ وغيرها داخلة تحت كلمة الأنين، فكلها أنين، فهل هي من أسماء الله الحسنى؟ .

بعض الصوفية ينكرون على من يحرف اسم الله تعالى عند الذكر

وقد أدرك بعض الصوفية هذا الانحراف في الذكر فحذروا منه .

فهذا الشيخ محمد بن يوسف الكافي الأزهري الأشعري الخلوتي عندما تكلم في آخر شرحه لكتاب قواعد العقائد للغزالي ذكر أن الشهادتين تشملان جميع العقائد، وذكر فضل الذكر بكلمة التوحيد [لا إله إلا الله] لكنه أرشد إلى ضرورة صحة النطق بها بأن يرقق جميع حروفها ماعدا لام الله، وأن يمد (لا) ويحققَ الهمزة، ويمدَّ اللام مداً طبيعياً، وأن لا يشبع حركة الهاء من لا إله، ويحققَ الهمزة، ولا يشبعَ حركتها ويشددَ اللام من (إلا)، ويفخم اللام من (الله).

قال: وإذا ذكر (الله) مفرداً فليقطع الهمزة ولا يشبع حركتها، ولا يتصرف في شيء من حروفها بزيادة أو نقصان بل يقتصر على الوارد شرعاً.

ثم قال: إذا تحقق لديك هذا تعلمُ أن ما خالف هذه الكيفية لا يُعد ذكراً شرعياً كاملاً، وقد شاع وذاع الفسادُ وعمَّ سائرَ الأقطار والبلادِ حتى أعمى البصائر ودنس السرائر اهـ **[الحصن والجنة على عقيدة أهل السنة ص ١٠٧ وما بعدها]** .

وذكر أنه إذا وجدنا من ينهى عن ذلك عِيبَ قولُه واستُصغِر عقلُه، ورأوا أنه أتى بمنكرٍ تَنْهَدُّ له الجبال، قال: وذلك أنَّ مما عليه غالبُ الناس اليوم تحريفَ الذكرِ بالكلمة المشرفة، ولا سند لهم في ذلك إلا نسبةُ التحريف إلى مشايخهم، وهذا جواب غالبهم ولو بَيَّنْتَ له الذكر الشرعي .

و مما ذكره أنه لا يصح اعتمادهم على حضور العلماء، لأنَّ العلماء لا يقلدون في أفعالهم كيفما كانت لأنهم ليسوا بمعصومين، وإنما المعتبر في هذا ونحوه نصوصُ الأئمة الأعلام المقتدى بهم العدول .

ثم قال الشيخ الخلوتي: وإنما أَطَلْتُ الكلام هنا لأن المقصود من التأليف النصيحةُ لعباد الله، وحيث ذكرت تعظيم الكلمة المشرفة أردت بيان ما عليه الناس اليوم في أذكارهم، من إخلالهم بتعظيمها لكي يرجع من وَفَّقَهُ الله تعالى عن غَيِّهِ إلى تعظيمها وبذلك يحصل له الخير العاجل والآجل اهـ باختصار .

[الحصن والجنة ص١١٠– ١١٢ طبع مطبعة النيل في مصر عام ١٣٢٤هـ] .

وكذلك العلامة الأخضري الصوفي [٤٧] صاحب كتاب (السلم المنورق) في علم المنطق وكتاب (الجوهر المكنون) في علوم البلاغة وله نظم في التصوف طبع ضمن الجزء الرابع من الرسائل المنيرية، ومما قاله في هذا النظم مرغباً في ذكر الله تعالى:

واعلم بأن طرق التطهير كثيرة عند ذوي التنوير
أقربُها نفعاً طريقُ الذكر بسرعة يزيل كل ستر
لكن بشرط الخوف والحضور مع ادِّكار هيبة المذكور
فمن تك الغفلة والأمان في ذكره حجبه الشيطان
وحال بينه وبين ربه بقذفه وساوساً في قلبه

---

(٤٧) كان رحمه الله تعالى صوفياً يستحسن التصوف، ويدعو إلى ضبط أمور التصوف بالموازين الشرعية، ويدعو إلى العمل بالعلم، ومما يدل على ذلك أنه أدخل استحسان التصوف في مواعظه وتوجيهاته في العلوم التي يشتغل بها، ومن ذلك قوله وهو يتكلم عن البلاغة في كتابه **الجوهر المكنون**:

كحبذا طريقة الصوفية تهدي إلى المرتبة العلية

وقد ذكر بعضَ آداب الذكر وشروطَ الذكر المشروع وحذر من تحريف اسم الله تعالى الذي يحصل في بعض حلقات الذكر فقال:

ومن شروط الذكر أن لا يُسْقِطا بعضَ حروف الاسم أو يفرطا

في البعض من مناسك الشريعة عمداً فتلك بدعة شنيعة

والرقص والصراخ والتصفيق عمداً بذكر الله لا يليق

وإنما المطلوب في الأذكار الذكر بالخشوع والوقار

فواجب تنْزيه ذكر الله على اللبيب الذاكر الأواه

عن كل ما تفعله أهل البدع ويُقْتَدَى بفعل أرباب الورع

وصنعوا في الذكر صنعاً منكرا صعباً فجاهدهم جهاداً أكبرا (٤٨)

خلوا من اسم الله حرف الهاء فألحدوا في أعظم الأسماء (٤٩)

لقد أتوا والله شيئاً إدا تخر منه الشامخات هدا

والألف المحذوف قبل الهاء قد أسقطوه وهو ذو إخفاء

قد غيروا اسم الله جل وعلا وزعموا نيل المراتب العلا

ورأى أن هذا التحريف للاسم الكريم سببه اتخاذ الجهال شيوخا يقتدون بهم ويرجعون إلى رأيهم فحذَّر من اتخاذهم شيوخاً لهم فقال:

واتخذوا مشايخاً جهالاً لم يعرفوا الحرام والحلالا

لم يقفوا عند حدود الله وسنةِ الهادي رسول الله

فنفروهم من دعاة الدين أُولِي التقى والعلم واليقين

فأعرضوا عن سبل الرحمن واتبعوا مسالك الشيطان

---

(٤٨) من الجهاد النافعِ الحلمُ واللطف والدعاء للإخوة المخطئين والسعي إلى تنويرهم بالعلم .

(٤٩) المراد بالإلحاد باسم الله هنا تغيير حروف الاسم أو حذف بعضها .

وهـــدموا قواعـــد الإســـلام   واعتـــبروا خرائـــف الأوهـــام [٥٠]

النقطة الثالثة: نصيب القلب من الذكر

ذِكْرُ الله تعالى له آثار عظيمة في الآخرة، هي الأجر العظيم والثواب الجزيل، وله آثار عظيمة في الدنيا، هي تنوير القلوب وعمارتها بأنوار الإيمان، التي تنشئ شعب الإيمان وتغذيها .

والنصيبُ الأعظم من ثواب الآخرة – **بالإضافة إلى فوائد الذكر في الدنيا** – مرتبطٌ بالقلب .

فمن الضروري للذاكر الحريصِ على الآثار العظيمة للذكر في الدنيا والآخرة أن يتنبه إلى عمل قلبه أثناء الذكر ومن ذلك:

آ – أن يكونَ قلبُ الذاكر حاضراً مُسْتَيْقِظاً عِنْدَ الذكر، مُنْتَبِهاً أنَّ اللَّه يَرَى قَلْبَه وَعَمَلَه، فالذِّكْرُ المؤَثِّرُ ما يَشْتَرِكُ فيه القلبُ مَعَ اللِّسانِ .

ب – أن يكونَ حالُ الذاكر الذلَّ والانكِسارَ بَيْنَ يَدَيْ مالِكِ المِلْكِ سبْحانَهُ وتعالى، فالذُّلُ والانكِسارُ مِنْ أهَمِّ عَوَامِلِ القُرْبِ إلى اللَّه عَزَّ وجَلَّ، فالسكينة وآثار الرحمة تناسب قلوب أهل الذل والانكسار .

جـ – أن يكونَ قلب الذاكر منشغلاً ومتفاعلاً بالكلمات التي يناجي بها ربه، لتحل آثار هذه المناجاة في القلب أنواراً وتغذيةً تنمو بها شعب الإيمان القلبية، فنموها صلاح القلوب، المنتج لصلاح الأحوال والأعمال .

---

(٥٠) قد يستغرب هذا الكلامَ بعضُ الإخوة الذين لم يطلعوا على هدم قواعد الإسلام عند كثير من متصوفة هذا العصر والعصور الماضية في كثير من بلاد المسلمين .

ومما ينبغي أن نتذكره أنه لا يصح أن نصف جميع الصوفية بصفة واحدة ومن الأمثلة القريبة أن الأخضريَّ – الذي ينكر هذا الإنكار الشديد على كثير من الصوفية – صوفيٌّ .

النقطة الرابعة : أهمية الأذكار الثابتة في القرآن والسنة

لا ننكر أن كل ذكر أو دعاء يناجي به العبدُ ربَّه جائزٌ إذا لم تكن فيه مخالفة للشرع، ولكن النصيحة لأنفسنا ولمن نحب لهم الخير تقتضي أن نركز على تقديم الذي هو خير على الذي هو أدنى .

ولا يرتاب مؤمن أن الأذكار والأدعية التي أرشدنا إليها المؤيَّدُ بالوحي ﷺ خير لنا مما نخترعه لأنفسنا من الأدعية والأذكار، فثوابها أكثر، وأنوارها أعظم وآثارها في القلوب أطيب .

إن الناظر في كتب الحديث يجد أن مِنْ أوسع الكتب والأبواب كتبَ وأبوابَ الأذكار والأدعية، فلا تكاد تجد حالاً أو عملاً من أحوال وأعمال الإنسان إلا وتجد فيه أذكاراً وأدعية كثيرة ثابتة صحيحة علمها رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام رضي الله عنهم .

لكننا نرى في مجتمعنا بين أيدي الناس أوراداً وأذكاراً يجعلونها وظائف وأوراداً لهم في أوقات مختلفة، يومية أو أسبوعية أو شهرية أو سنوية، قد كُتب عليها أنها من تأليف الشيخ فلان، أو العارف بالله فلان، ويُزْعَمُ أن لها فضائل وفوائد وخصائص كبيرة في الدنيا والآخرة من الصعب على أهل العلم أن ينسبوا مثلها للأذكار والأدعية التي ثبتت عن رسول الله ﷺ .

ويلاحظ أنَّ في بعض هذه الأوراد المخترعة أموراً لا مستند لها من الشرع، منها أن تربط خصائصُها التي يَدَّعُونَها بأوقات وأعداد ونحو ذلك مما لا يثبت مثله إلا بالوحي الإلهي .

فمثل هذه الخصائص وشروطها لا تثبت إلا بعلم، ولا علم في هذا الأمر إلا بالوحي، فإرشاد الناس إليها وقبول هذا الإرشاد بُعْدٌ عن التوجيه الأساسي في ديننا الذي أرشدنا الله تعالى إليه بقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء/ ٣٦] .

وقد رأيت كثيراً من الإخوة يشتغلون بأذكار وأدعية من كلام الشيخ فلان أو فلان، وبعضُ هذه الأذكار والأدعية يرشد بعض الشيوخ تلاميذهم أن يجعلوها أورادهم الدائمة، ويزهدون في الأذكار والأدعية التي ثبتت في السنة والتي كانت سقايةً لقلوب خير هذه الأمة من الصحابة ﷺ والتابعين وأتباعهم .

ولايرتاب مفكر عنده قليل من العلم الشرعي أنَّ مثلَ هذا الاختيار ليس نصيحةً لنفس من اختاره، ولا لمن أرشدهم .

وفي آخر هذه النقطة أقول لكل أخ يقرأ هذا الكلام: أكرمْ نفسك وأسعدها بتنوير وسقاية قلبك بأنوار ونعيم الأذكار التي أحيا الله تعالى بها قلوب الصحابة ﷺ فوالله إنها مع القرآن الكريم جَنَّةٌ ونعيمُ العلماء الربانيين في الدنيا قبل الآخرة، وأُنْسُ وراحةُ المؤمنين الصالحين .

النقطة الخامسة : إبقاء الأذكار المأثورة كما جاءت

رأيت بعض الإخوة يأخذون بعض الأذكار الواردة في السنة يذكرون الله تعالى بها، ولكنهم لا يُبْقونها على صفائها وجمالها وكمالها، بل يزيدون عليها كلمة – أو جملة – هنا وهناك .

أقول لهؤلاء الإخوة: النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم، وإن بعض الزيادات أو التغييرات تذهب ببعض خصائص جوامع الكلم، وإنَّ الزيادة في مثل هذا نقصانٌ في الحقيقة، ولو توهم أحد أنَّ في هذه الزياداتِ أو التغييراتِ خيراً فهو في غاية البعد عن الحقيقة والعلم .

فمن الخير أن نبقي الأذكار المأثورة كما جاءت، دون أن نغير فيها شيئاً أو نضيف إليها زيادات .

النقطة السادسة : ضرورة الذكر لطالب العلم

من مداخل الشيطان التي يصل بها إلى حرمان المسلم من كثير من الخيرات مُفاضَلَةٌ بين الأعمال الصالحة تُوصِل إلى ترك كثير من الخير، كأن يتساءل: أطَلَبُ العلم ومدارستُه أفضل، أم الذكر؟ أَطَلَبُ العلم ومدارسته أفضل، أم صلاة النافلة؟ والجواب الصحيح: طلب العلم ومدارسته أفضل من الذكر، بل هو ذكر، وأفضل من صلاة النافلة، كما قال أهل العلم ومنهم الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، وهذا السؤال وجوابه وإن كان حقاً وصحيحاً، لكن ذلك مدخل للشيطان يوصل به طالبَ العلم في كثير من الحالات إلى الخسارة، بسبب حرمانه من عمارة قلبه الذي لا يحيا إلا بذكر الله والتضرع والتبتل إليه .

وإذا كان لطلب العلم فوائدُه العظيمة، فإن هذه الفوائد لا تغني عن تلاوة القرآن وتدبره، ولا عن تسبيح الله تعالى وحمده والتضرع والتبتل إليه، ولا تغني عما يَحتاج إليه من التأثر بمواعظ القرآن، واستضاءة قلبه بأنوار أسماء الله تعالى وصفاته أثناء التلاوة والذكر، ولا تغني فوائدُ دراسة العلم عن أنوار الإيمان التي يحصلها طالب العلم بمتابعته لرسول الله ﷺ الذي كان يكثر من تلاوة القرآن في تهجده ((**يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ**)) . **[مسلم / ٧٧٢]**

إنَّ طالب العلم يحتاج إلى مسائل الفقه وأصولِها وقواعدها، وإلى علوم الحديث ومصطلحاتها،وإلى علوم اللغة والنحو والبلاغة وغيرها، ولكنه يحتاج أيضاً إلى أنوار الأذكار التي سُقيت بها قلوب الصحابة والتابعين، والعلماءِ العاملين، تلك الأذكار التي تَبْنِي في القلوب ما لا تَبْنِيْهِ المعلومات النظرية التي تشتغل بها ذاكرة الإنسان وتفكيره .

إنَّ أنوارَ عبارةِ **[له الملك وله الحمد]** وما تتركه هذه الكلمات في قلبه من الشعور بعظيم فضل الله تعالى عليه، وصدق الرجاء والخشية منه وحدَه، مع صدق التوكل والاعتماد عليه، وغيرِ ذلك من أنوار الإيمان وشُعَبِه القلبية لا تحصل في

الغالب بتكرارها مرتين أو ثلاث مرات، بل تحتاج قلوبنا لتحصيل هذه الأنوار وغيرها إلى تكرارها مرات كثيرة مع التدبر، ولذلك أرشدنا النبي ﷺ أن نسقي قلوبنا بها في اليوم مائة مرة فقال:

((**مَنْ قَالَ لا إِلَهَ اللَّه وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إلا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**)) [البخاري / ٣١١٩] .

ويساعد على إضاءة القلب بهذه الأنوار التي ذكرتُ بعضَها أن نسقي قلوبنا بما وصفه الحريص علينا حرصاً أكثرَ من حرص أمهاتنا ﷺ بأنه كنْزٌ – والكنْز ثمين مرغوب فيه – ولكنه ﷺ لم يكتف في ترغيبي وترغيبك بأنه كنْز، بل وصفه بأنه من كنوز الجنة فقال لأبي موسى الأشعري ﷺ : ((**يَا عَبْدَ اللَّه بْنَ قَيْسٍ**)) قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ((**أَلاَ أَدُلّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنّةِ**)) قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي، قال: ((**لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوّةَ إِلاّ باللَّه**)) [البخاري/٣٩٦٨ ومسلم / ٢٧٠٤] .

ولذلك فإن من الخير لي ولك ياطالب العلم أن تكون لنا عناية بعمارة قلوبنا، بل بمداواتها بالتبتل إلى الله تعالى، بركعاتٍ في جوف الليل نذوق فيها طعم الخضوع والسجود، وبتلاوةٍ يراد منها المناجاة والتدبر، وببعضِ جلسات يجلس فيها أحدنا خالياً يذكر الله تعالى ويدعوه، ببعض ما اشتغلت به ألسنة وقلوب السابقين الأولين، من الأدعية والأذكار، لعل أعيننا تفيض بدمعات تُغسل بها آثارُ معاصينا، فتتطهر قلوبنا لتصلح لنُمُوِّ شُعَبِ الإيمان القلبية، التي تساعدنا على التقوى والاستقامة، وتساعدنا على غلبة أهوائنا فنسلم، عندما تصير تابعةً لما جاء به مَنْ نرجو الله تعالى أن يكرمنا بأن نحيا ونموت على محبته ومتابعته وسنته ﷺ ، ويكرمنا بلقاء طيب معه على الحوض الذي جعله ميقاتاً للقائه مع إخوانه الذين لم يَرَهُمْ في حياته، لأنهم جاؤوا بعد عصره فاتبعوه مستنيرةً قلوبهم بمحبته مستقيمين على هديه، وقال عنهم: ((

وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا، قالوا أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟ **قَالَ أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**، فقالوا كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فَقَالَ: **أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ** قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: **فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ**)) **[مسلم / ٢٤٩]** .

دعوة طالب العلم لإحياء قلبه بذكر الله تعالى

وإني أدعوك يا أخي الغالي يا طالب العلم إلى أن تجلس وحدك مجلساً على طهارةٍ لجسدك بالوضوء، وطهارةٍ لقلبك بتوبة واستغفار وذل وانكسار، متبرئاً من حولك وقوتك، ومن علمك وصلاحك، إذ لا فضل لك في ذلك ولا في غيره، لأن الفضل لمن علمنا نبينا ﷺ أن نقول عنه: ((**له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن**)) .
[مسلم / ٥٩٤]

اجلِسْ هذه الجلسة مستعيناً بالله تعالى على ذكره، وقل بقلبك ولسانك: **لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**، مائة مرة، كما تقدم في الحديث، وركز في قلبك على قولك: **له الملك وله الحمد**، ثم كرر: **لا حول ولا قوة إلا بالله**، تلك الكلمات عدداً من المرات حتى تشعر أن قلبك تَذَوَّق من أنوارها، عند ذلك تجد أنَّه قد حصل في القلب نور إيمانيٌّ هو كنْزٌ أيضاً من كنوز الجنة، اجلس هذه الجلسة عدة مرات ثم انظر إلى قلبك، مقارناً حاله بما كان عليه قبل أن تجلس هذه الجلسات، لعلك تدرك أن من الضروري لنا معشر طلابَ العلم أكثر من غيرنا أن نعتني بمداواة وسقاية وعمارة قلوبنا بذكر الله تعالى .

وقد كان رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون ﷺ وأكابر علماء هذه الأمة مع كثرة مسؤولياتهم وعظيم أعمالهم أكثرَ الناس ذكراً وعبادة وتلاوة، وكان لذلك الذكرِ أكبرُ الأثر في قوتهم على الاستقامة وعلى تحمل الصعاب والقيام بالواجبات، كان ذكر الله تعالى يشحن قلوبهم بأعظم الطاقات التي جَعَلَتْ منهم سادةَ البشرية وعجائب الإنسانية، فتحملوا ما لم يتحمله غيرهم، تأتيهم القوة والمعونة والفهم

والتوفيق من الله تعالى الذي تَفِرُّ قلوبهم إليه، وترتاح بالتوكل عليه، وتتنعم بذكره ومحبته، مسترشدين بما خاطب الله تعالى به رسوله ﷺ بقوله: ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾ [الحجر / ٩٧-٩٩] .

النقطة السابعة : الجهر بالذكر والدعاء والاجتماع على ذلك

لا ننكر أن في بعض الاجتماعات على الذكر أموراً ليس لها مستند شرعي، وأنها يكون فيها أمور لا يرضاها الله تعالى، وهذه لا بد من إنكارها.

ولكن هل من الجائز أن تقام مجالس ذكر غير مجالس مدارسة القرآن والعلم، يجتمع فيها أناس مؤمنون على دعاء وتهليل وتسبيح وتحميد ونحو ذلك من الأذكار الواردة في السنة؟، **وهل من الجائز الجهر بهذه الأذكار**؟ .

أما الاجتماع على الذكر فإننا نجد أحاديث كثيرة تدل على فضله منها ما تقدم من حديث الصحيحين: ((**إنّ للّه تبَارَكَ وَتعَالَى مَلاَئِكَةً سَيّارَةً فُضُلاً،...... فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الأَرْضِ، يُسَبّحُونَكَ وَيُكَبّرُونَكَ وَيُهَلّلُونَكَ وَيُمَجّدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ ......قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبّ فِيهِمْ فُلاَنٌ، عَبْدٌ خَطّاءٌ، إنّمَا مَرّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ . قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمُ الْقَوْمُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُم**))

قال النووي رحمه الله تعالى في الأذكار: اعلم أنه كما يُستحبُّ الذكر يُستحبُّ الجلوس في حِلَق أهله ، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك، ثم قال:

وروينا في صحيح مسلم عن معاوية رضي الله عنه أنه قال : خرج رسول اللَّه ﷺ على حلقة من أصحابه فقال: ((**ما أجْلَسَكُم**))؟ قالوا: جلسنا نذكُر اللَّه تعالى ونحمَدُه على ما هدانا للإِسلام ومنّ به علينا، قال: ((**آللَّهِ ما أجْلَسَكُمْ إلا ذَاكَ**))؟ قالوا: واللَّه ، ما أجلسنا إلاّ ذاك، قال: ((**أما إني لَمْ أستحلِفْكُمْ تُهَمَةً لكُمْ، ولكنَّهُ أتاني جبْرِيلُ فأخْبَرَني أنَّ اللَّه تعالى يُباهي بكُمُ المَلائكَةَ**)) [مسلم : ٢٧٠١] .

قال : وروينا في صحيح مسلم أيضاً ، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي اللَّه عنهما : أنهما شهدا على رسول اللَّه ﷺ أنه قال : ((**لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُون اللَّه تعالى**

إلا حَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَليهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّه تَعالى فِيمَنْ عِنْدَهُ » [**مسلم : ٢٧٠٠**] اهـ كلام النووي

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كان عبد الله بن رواحة ﷺ إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: **تعال نؤمن بربنا ساعة،** فقال ذات يوم لرجل، فغضب الرجل، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة؟! فقال النبي ﷺ : « **يَرْحَمُ اللهُ ابْنَ رَوَاحَةَ إنَّهُ يُحِبُّ الْمَجَالِسَ الَّتِي تَتَبَاهَى بِهَا الْمَلَائِكَةُ** » [**رواه الإمام أحمد وإسناده حسن، مجمع الزوائد ١٠/ ٧٦**] .

وأما الجهر بالذكر فإنه مسألة اختلفت فيها أنظار الفقهاء مابين قائل بالإباحة، وقائل بالكراهة، كما أنَّ ذلك يختلف باختلاف الأحوال .

وقد ذكر النووي في شرح مسلم حديث ابن عباس رضي الله عنهما « **أنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ حِيْنَ يَنْصَرِفُ النَّاسُ مِنَ الْمَكْتُوبَةِ كانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ** » وأنه قال: « **كنتُ أعْلَمُ إذَا انْصَرَفُوا بِذَلِكَ إذَا سَمِعْتُهُ** » [**البخاري / ٨٠٥ ومسلم / ٥٨٣**] .

ثم قال: هذا دليل لما قاله بعض السلف أنه يستحب رفع الصوت بالتكبير والذكر عقب المكتوبة وممن استحبه من المتأخرين ابن حزم الظاهري، ونقل ابن بطال وآخرون أن أصحاب المذاهب المتبوعة وغيرهم متفقون على عدم استحباب رفع الصوت بالذكر والتكبير، وحَمَلَ الشافعيُّ رحمه الله تعالى هذا الحديث على أنه جهر وقتاً يسيراً حتى يعلمهم صفة الذكر لا أنهم جهروا دائماً، قال فاخْتارَ للإمام والمأموم أن يذكرا الله تعالى بعد الفراغ من الصلاة ويخفيان ذلك إلا أن يكون إماماً يريد أن يُتَعَلَّمَ منه فيجهرُ حتى يَعلم أنه قد تُعُلِّمَ منه ثم يسر وحَمَلَ الحديث على هذا اهـ [**النووي على مسلم ٥/ ٨٤**] .

ونقل في البحر الرائق قولَ صاحب القنية: إمامٌ يَعتاد في كل غداة مع جماعته قراءةَ آية الكرسيِّ، وآخرَ البقرة، وشهد الله ... ونحوَه جهراً لا بأس به، والأفضلُ الإخفاء .

وقولَه: قاصٌّ وعنده جمعٌ كثير يرفعون أصواتهم بالتهليل والتسبيح جملة؟ قال: لا بأس به والإخفاء أفضل [**البحر الرائق ٢/ ١٧٢**] .

وليس المقصود من هذه النقطة الدعوةَ إلى الجهر بالذكر أو بالدعاء، ولا إثباتَ أنه سنة، كما أنه ليس المقصودُ إنهاء الخلاف بين العلماء بين إباحة الجهر وكراهته، لكن المرادَ بيانُ السعة واليسر في هذا الدين الحنيف .

قد يرغب بعض الإخوة أن يجلسوا بعضُهم مع بعض ليعملوا بتوجيهات رسول الله في حديث « **هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم** » يريدون أن يوحدوا الله ويسبحوه ويحمدوه ويكبروه ويسألوه الجنة ويعوذوا به من النار، عملاً بتوجيهاته ﷺ في حديث « **جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام** » فإذا جلسوا مثل هذه الجلسة وذكروا الله ببعض الأذكار الواردة في السنة، ودعوا الله تعالى ولم يكن في دعائهم وأذكارهم تشويش على مصلٍ ولا نائم ولا قارئٍ فلا حرج عليهم في ذلك، وإذا رأى بعض أهل العلم في ذلك كراهة، فإن بعضهم يرون الإباحة .

وإذا رأى بعضهم أن ذلك مخالف للسنة فإن غيرهم لا يرى في ذلك مخالفة.

والغاية من هذا الكلام التذكيرُ بِسَعَةِ الإسلام، وكما أن الحذر من المحدثات مطلوب، كذلك التضييق والإنكار في المباح أو فيما فيه مجال لبحثٍ واجتهادِ العلماء ممنوع .

أما ما يمكن أن يستدل به على جواز الجهر بالذكر إجمالاً فأحاديث منها:

ما تقدم من حديث الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما « **أنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ حِيْنَ يَنْصَرِفُ النَّاسُ مِنَ الْمَكْتُوبَةِ كانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ**، وقال ابن عباس: **كنتُ أَعْلَمُ إذَا انْصَرَفُوا بِذَلِكَ إذَا سَمِعْتُهُ** » [البخاري / ٨٠٥ ومسلم / ٥٨٣] .

قال ابن حجر: وفيه دليل على جواز الجهر بالذكر عقب الصلاة اهـ .
[فتح الباري ٢ / ٣٢٥]

ومنه حديث مسلم: كان ابن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. وَقَالَ: **كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يُهَلّلُ بِهِنّ دُبُرَ كُلّ صَلاَةٍ** [مسلم/ ٥٩٤] .

ومعنى يهلل بهن، يرفع صوته بهن .

ومنها حديثهما أيضاً عن أنس ﷺ «وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون، والنبي ﷺ معهم، وهو يقول:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة * فاغفر للأنصار والمهاجرة » .

[البخاري / ٤١٨ ومسلم / ٥٢٤]

وعن البراء ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ يوم الخندق، وهو ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره، وكان رجلاً كثير الشعر، وهو يرتجز برجز عبد الله بن رواحة:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا * وثبت أقدامنا إن لاقينا

إن الأعدا قد بغوا علينا * إن أرادوا فتنة أبينا

يرفع بها صوته. [البخاري / ٢٦٨١ومسلم / ١٨٠٣] .

ورفعُ الصوت بالذكر في هذه المواطن ونحوها لا يمنع الرفع في غيرها إذا لم يكن هناك مانع شرعي كالتشويش على مصلٍ أو قارئٍ أو نائمٍ .

بعد هذا البيان وبهذه الأدلة أقول إن ما نراه من بعض الإخوة من التشديد والإنكار في هذا الأمر واعتبار الجهر مطلقاً بدعة مخالف لما ثبت بالأدلة ولما ذهب إليه الراسخون في العلم .

وقد ذكر الإمام الشافعي رحمه الله تعالى حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما «كان رسول الله ﷺ إذا سلم من صلاته يقول بصوته الأعلى: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة الا بالله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون** » ثم قال: وأيُّ إمامٍ ذَكَر اللهَ بما وصفتُ – جهراً أو سراً – أو بغيره فحسن، وأختارُ للإمام والمأموم أن يذكرا الله بعد الانصراف من الصلاة ويخفيان الذكر إلا أن يكون إماماً يريد أن يُتَعَلَّمَ منه فيجهرَ حتى يرى أنه قد تُعُلِّمَ منه ثم يسر [الأم ١/ ١٢٧] .

وقد يشكل هذا الكلام على بعض الإخوة عندما يقرؤون حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا

ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ**)) .

[البخاري / ٢٨٣٠ ومسلم / ٢٧٠٤] وربما استدلوا به على منع الجهر بالذكر .

والجواب أن هذا الحديث ليس فيه منع الجهر بالذكر لأن قوله ﷺ : ((**اربَعوا على أنفسكم**)) معناه ارفِقوا بأنفسكم ، وظاهره أنهم كانوا يتكلفون الرفع الذي فيه مشقة، فأمرهم النبي ﷺ بخفض الصوت رفقاً بهم، ولم يؤمروا بالإسرار، ولم يُنْهوا عن الجهر، ويدل على أن المراد النهيُ عن شدة رفع الصوت لا الأمرُ بالإسرار حديثُ أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ((**فَإِذَا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ أَوْ بَادِيَتِكَ فَأَذَّنْتَ بِالصَّلَاةِ فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ**)) [البخاري / ٥٨٤] .

فعبارة: **ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا** تشبه عبارة: **فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ**، ومعلوم أنه لم يأمره أن يجهر بالأذان، بل أمره برفع الصوت، ليكون مداه أبعد، لأن الأذان لا يكون إلا جهراً .

النقطة الثامنة : تخصيص وقت للاجتماع على ذكر الله تعالى

الذكر والدعاء من الأعمال الصالحة، فإذا أراد بعض المؤمنين أن يتعاونوا على ذكر الله من التسبيح والتهليل والتكبير والأدعية المأثورة وحمده تعالى على نعمة الإسلام وغيرها، فلا بد من تعيين وقت لاجتماعهم يناسبهم، ولا حرج عليهم في ذلك ما دام اجتماعهم خالياً من مخالفة الشرع، ولا يعتبر شيء من ذلك بدعة، لأن البدعة المذمومة كما تقدم فيما نقله الحافظ ابن حجر عن الشافعي رحمه الله تعالى هي ما أحدث يخالف كتاباً أو سنةً أو أثراً أو إجماعاً فهذه بدعة الضلال، ثم قال: وما أحدث من الخير لا يخالف شيئا من ذلك فهذه محدثة غير مذمومة اهـ .

وقد تقدم معنا ما بيَّنَ به ابنُ حجر هذه المسألة بقوله: والمحدَثاتُ بفتح الدال جمعُ مُحْدَثَةٍ، والمراد بها ما أُحدث ليس له أصل في الشرع ويسمى في عرف الشرع بدعة .

ثم بين أنَّ ما أُحْدِثَ وله أصل شرعي لا يكون بدعة في اصطلاح الشرع فقال: وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة اهـ [فتح الباري ١٣/ ٢٥٣] .

وإذا نظرنا إلى ما تقدم من الأمور التي ذكرتها في هذا الاجتماع على الذكر وجدنا لكلٍ منها أصلاً في الشرع، والمحدث هو تخصيص الوقت الذي يناسب المجتمعين على الذكر، ولا حرج في ذلك شأنه شأن الاجتماع على القصص الذي حدث بعد عصر النبي ﷺ .

قال ابن حجر: والمراد بالقصص التذكير والموعظة وقد كان ذلك في عهد النبي ﷺ ، لكن لم يكن يجعله راتباً كخطبة الجمعة بل بحسب الحاجة .

[فتح الباري ١٣/ ٢٥٤]

ومن وصف من أهل العلم القَصص بأنه بدعة فمراده بدعة الهيئة المباحة، كقول سيدنا عمر رضي الله عنه عن صلاة التراويح: نعمت البدعة هذه .

وقد نقل ابن رجب الحنبلي عن الحسن البصري رحمه الله تعالى يتحدث عن القصص: إنه بدعة ونعمت البدعة كم من دعوة مستجابة وحاجة مقضية وأخ مستفاد **[جامع العلوم والحكم ١/ ٢٦٧]** .

ملحق في بيان أنَّ الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى والتحذير من كهانات منتشرة باسم الاستخارة

من عقيدتنا التي جاء بها كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ أن الله وحده يعلم الغيب ولا يعلم الغيب سواه، قال تعالى: ﴿ **قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** ﴾ [النمل/٦٥] .

وقال سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [لقمان/٣٤] .

وقالت عائشة رضي الله عنها: «**وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾**» [البخاري/ ٤٥٧٤] .

ويتوهم بعض الناس البعيدين عن بصائر القرآن والسنة أنَّ الجن يعلمون الغيب .

وهذه العقيدة باطلة تخالف الأدلة السابقة، وتخالف قوله تعالى في شأن سليمان ﷺ: ﴿ **وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ * فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾ [سبأ/ ١٢-١٤] .

من أمراض عصرنا محاولة استطلاع غيب المستقبل

ومن أمراض عصرنا أن كثيراً من أبناء مجتمعاتنا يحاولون أن يستطلعوا المستقبل عن طريق الكهانة بأشكال مختلفة :

منها: محاولة معرفة وجود توافق أو تنافر بين الخاطب والمخطوبة لو حصل بينهما زواج .

ومنها: محاولة معرفة وجود التوفيق أو عدمه في مشروع تجارة أو صناعة شركة أو غير ذلك .

ومنها: محاولة معرفة سبب غيبيٍّ لسوء العلاقة بين زوجين .

ومنها: محاولة معرفة سبب غيبي لمرضٍ أو مشكلةٍ أو معرفةِ مكان الضالَّة من متاع أو حيوان، أو مكان المسروق، أو معرفة مَنِ السارق ونحو ذلك .

ومنها: محاولة معرفة سبب غيبي لتأخر زواج البنات اللاتي تأخر زواجهن[٥١].

انتشار الكهانة باسم الاستخارة

وقد وجد في كل بلدة من بلاد المسلمين أناسٌ من الرجال والنساء، يزعمون أنهم يستطلعون الغيب، يأتيهم النساء والرجال يطلبون منهم معرفة الأمور الغيبية السابقة وغيرها فيجيبونهم بكهاناتهم المختلفة، ويُسَمُّون الوسائل التي يلبسون فيها على الناس استخارة .

وقد وجدت وانتشرت انحرافات في تَصَوُّرِ معنى الاستخارة:

منها: فتح المصحف عند الاستخارة وزعمه أنه بنظره فيه يعرف ما يرجوه السائل من أمور غيبية .

ومنها: استعمال حبات السبحة عند الاستخارة .

ومنها: استعمال ما يسمونه تبييت الأثر، حيث يأخذ الكاهن ثوباً أو نحوه من آثار إنسان فَيُبَيِّتُهُ عنده، ويزعم في الغد أنه عرف الأمر الغيبيَّ الذي يريدونه .

ومنها: ادعاؤه معرفة الغيب المطلوب عن طرق رؤيا منامية بعد صلاة ركعتي الاستخارة والدعاء، ويرى كثير من الإخوة أنَّ هذا هو الاستخارة الشرعية، وقد تقدم معنا في الإضاءات أن ما يتعلق بغير الأنبياء من الرؤيا لا يعتمد عليه لا في أمر ديني ولا دنيوي .

ما يحدث من الإنسان في المستقبل غيب، والغيب لا يعلمه إلا الله وحده؛ فكل من أخبر بأنه سيكون كذا أو كذا من أمور غيبية، اعتماداً على ما تقدم، أو على نحوه من الكهانات فكلامه رجم بالغيب، والمتكلم كاهن .

وكذلك من أخبرك بمكان الضالة أو بسبب المشكلة أو بسبب المرض من أمور غيبية اعتماداً على ما تقدم فكلامه رجم بالغيب، والمتكلم بذلك عَرَّافٌ .

---

(٥١) كل هذه المحاولات باطلة لا تُنتج إلا ارتكاب المعصية بهذه المحاولات لاستطلاع الغيب، واللائق بأَتْباع النبي ﷺ المستضيئين بأنوار العلم أن يكون اهتمامهم بدراسة الأسباب والنتائج، واستشارة أهل الأمانة والخبرة فيما نستشيرهم فيه، وبعد دراستنا للأمر من جوانبه المختلفة، نلتجئ إلى الله تعالى أن يختار لنا الخير وييسره لنا .

وكذلك من يقول نتيجةً للاستخارة: إنه سيكون كذا أو كذا من أمور غيبية فكلامه رجم بالغيب وكهانة، ومن يعتمد عليه يخالف قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ [الإسراء/٣٦] .

ومن يأتي هؤلاء الكهان والعرافين يستطلع الغيب فإنه مرتكب لمعصية كبيرة، ومشابه في عمله هذا للكفار الذين حرموا أنفسهم من ضياء العلم، قال رسول الله ﷺ « **مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** » [مسلم / ٢٢٣٠] .

وقال عليه الصلاة والسلام: « **مَنْ أَتَى كَاهِناً أَوْ عَرَّافاً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ** » [الإمام أحمد / ٩٥٣٢] .

قال الإمام النووي في شرح مسلم:

قال العلماء: إنما نهى عن إتيان الكهان لأنهم يتكلمون في مغيبات قد يصادف بعضها الإصابة فيخاف الفتنة على الإنسان بسبب ذلك لأنهم يلبسون على الناس كثيراً من أمر الشرائع، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن إتيان الكهان وتصديقهم فيما يقولون، وتحريم ما يعطون من الحلوان وهو حرام بإجماع المسلمين .

وقال الخطابي رحمه اللّه تعالى: والفرق بين العراف والكاهن أن الكاهن إنما يتعاطى الأخبار عن الكوائن في المستقبل ويدعي معرفة الأسرار، والعراف يتعاطى معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة ونحوهما .

وقال الخطابي: كان في العرب كهنة يدعون أنهم يعرفون كثيراً من الأمور:

فمنهم من يزعم أن له رَئِياً من الجن يُلْقي إليه الأخبار.

ومنهم من يدعي استدراك ذلك بفهم أعطيه.

ومنهم من يُسَمَّى عرافاً وهو الذي يزعم معرفة الأمور بمقدمات أسباب استدل بها كمعرفة من سرق الشيء الفلاني .

قال: والحديث يشتمل على النهي عن إتيان هؤلاء كلهم والرجوع إلى قولهم وتصديقهم فيما يدعونه، هذا كلام الخطابي وهو نفيس.

انتهى كلام النووي في شرح مسلم عند كلامه على عبارة: « **وَإِنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأْتُونَ الْكُهَّانَ** » في حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه **[مسلم/ ٥٣٧] .**

حقيقة الاستخارة

المراد بالاستخارة أن يطلب العبد خير الأمرين لمن احتاج إلى أحدهما، كما قال ابن حجر في فتح الباري ١١/١٥٥

وقال العلامة فضل اللّٰه الجيلاني في شرحه للأدب المفرد: الاستخارة ليست عبارة عن استعلام الغيب بل هي عبارة عن استدعاء الخير بالتضرع إلى علام الغيوب ولا يعتقد صاحبها كونها طريقة إلى علم الغيب، ثم نقل عن طبقات الشافعية الكبرى قول الشيخ كمال الدين الزملكاني: إذا صلى الإنسان ركعتي الاستخارة فليفعل بعدها ما بدا له سواء انشرحت نفسه له أم لا فإن فيه الخير وإن لم تنشرح له نفسه اهـ .

[فضل اللّٰه الصمد ٢/١٦٨ . ٦٩ وطبقات الشافعية الكبرى ٩/٢٠٦]

وأما الاستدلال بحديث أنس عند ابن السني: ((**يا أنَسُ، إذَا هَمَمْتَ بِأمْرٍ فاسْتَخِرْ رَبَّكَ فيهِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْظُرْ إلى الَّذي سَبَقَ إلى قَلْبِكَ، فإنَّ الخَيْرَ فِيهِ**)) على أن المستخير يعتمد على انشراح صدره فيفعل بعد الاستخارة ما ينشرح به صدره، فلا يصح لضعف هذا الحديث، قال ابن حجر في الفتح ١١/١٥٧– ١٥٨: هذا لو ثبت لكان هو المعتمد، لكنَّ سنده واهٍ جداً والمعتمد أنه لا يفعل ما ينشرح به صدره مما كان له فيه هوىً قويٌّ قبل الاستخارة. اهـ كلام ابن حجر **[١١/١٥٧. ١٥٨]**

أقول: وهذا الحديث قال عنه النووي في الأذكار: إسناده غريب فيه من لا أعرفهم اهـ، وقد تعقب الحافظ العراقيُّ رحمه اللّٰه في شرحه للترمذي النوويَّ فقال: هم معروفون، لكن فيهم راو معروف بالضعف الشديد وهو إبراهيم بن البراء، ثم نقل عن أهل العلم أنه يحدث بالأباطيل عن الثقات وأنه لا يحل ذكره إلا على سبيل القدح فيه، قال العراقي: فعلى هذا فالحديث ساقط، وقد أفتى ابن عبد السلام بخلافه. انظر شرح الأذكار ٣/٣٥٧ .

ومن الغريب العجيب أن الناس قد تغيرت مفاهيمهم عن المفهوم الشرعي الصحيح للاستخارة الذي هو الطلب من اللّٰه تعالى أن يختار للعبد ما فيه الخير وصار هدفهم أن يستطلعوا الغيب وأن يعرفوا ما فيه، وقد صار هذا المفهوم الباطل سبباً لانتشار الكهانة باسم الاستخارة، وصار يقال عن الكاهن: الشيخ فلان وعن الكاهنة: الشيخة فلانة، ويغطي هؤلاء كهانتهم بتلاوة آيات من القرآن .

لذلك يتأكد على المسلم أن يعرف حقيقة الاستخارة بالصفة التي تعلمها الصحابة ﷺ من رسول الله ﷺ .

عن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنهما قال: كان رسول اللّه ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن، يقول:

« **إذَا هَمَّ أحَدُكُمْ بالأمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لْيَقُلِ: اللَّهمَّ إنِّي أسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وأسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأسألُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فإنَّكَ تَقْدِرُ ولا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أعْلَمُ، وأنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ، اللَّهمَّ إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ هَذَا الأمْرَ خَيْرٌ لي فِي دِينِي وَمَعاشِي وَعاقِبَةِ أمْرِي**، أو قال: **عاجلِ أمْرِي وآجِلِهِ، فاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لي، ثُم بارِكْ لي فِيهِ، وَإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ هَذَا الأمْرَ شَرٌّ لي في دِينِي وَمعاشِي وَعاقِبَةِ أمْرِي**، أو قال: **عاجِلِ أمْرِي وآجِلِهِ، فاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ**، قال: **ويُسمِّي حاجَتَهُ** » .

[البخاري / ١١٠٩]

هذه هي الاستخارة التي صحت عن رسول الله ﷺ فإذا همَّ المسلم بأمر وصلى ركعتين ودعا بهذا الدعاء فقد تمت الاستخارة .

فالاستخارة لا تحتاج إلى تَبْيِيتٍ، وليس لها جواب مرتبط بالغيب، وإذا رأى المستخير رؤيا بعد الاستخارة فقد تكون رؤيا صالحة، ولا تعطي الرؤيا الصالحة علماً، وقد تكون حلماً شيطانياً (٥٢) .

---

(٥٢) من حوادث الكهانة التي فيها عبرة أن رجلاً وافق على تزويج ابنته من خاطبٍ دون أن يبحث أو يسأل عنه؛ لأنه قد طلب من شيخه أن يبيت له استخارةً فكانت نتيجة الاستخارة في اليوم الثاني بزعمهم أن الخاطب جيد ومناسب، ولكن زوج ابنته الثانية تلطف مع والد زوجته وذهبا للسؤال عن الخاطب فتبين بعد البحث عنه أنه تارك للصلاة ومدمن على شرب الخمر .

ومن الحوادث المفيدة أن رجلاً ممن أحترمهم وأُجِلُّهم وأَنْظُرُ إليهم في ظني بمنظار الصلاح، وليس من عادته أن يعمل استخارات للناس، وقد بلغني عنه أن بعض جيرانه طلبوا منه استخارة من أجل خاطب خطب ابنتهم فصلى ركعتين ودعا بدعاء الاستخارة ونام، وفي اليوم الثاني نهاهم عن تزويج هذا الخاطب، فذهبت إليه لأستبين الأمر فأقَرَّ بصحة ما بلغني عنه، فسألته عن سبب نهيهم عن تزويج هذا الخاطب، فقال إنه رأى في الرؤيا كلباً أسود .

خاتمة

بعد كتابة هذه الصفحات أذكر القارئ الكريم بأني لم أكتبها من باب الدراسة النظرية، بل كتبتها بلسماً مركباً من توجيهات القرآن الكريم وسنة النبي الأمين صلى الله عليه وسلم، ومن أحوال وتوجيه الصحابة الكرام ﵃ ومن سار على نهجهم من الأئمة الراسخين في العلم من وُرَّاثِ النبي عليه الصلاة والسلام .

وأرجو من الإخوة الذين يطالعون هذه الصفحات إذا وجدوا ملاحظات تساعد على الوصول إلى الحق وتعين على القرب إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم وسنة الخلفاء الراشدين أن لا يبخلوا علي بملاحظاتهم الكريمة .

وما كان في هذه الرسالة من الخير والصواب فهو من الله تعالى،وله وحده الحمد والمِنّة، وما كان فيها من الخطأ فمني ومن الشيطان وما أبرىء نفسي، لكني أقول كما قال شعيبٌ عليه الصلاة والسلام: ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود / ٨٨] .

فسألته أيوسوس إليه الشيطان وهو يصلي؟ فأجاب: نعم، فقلت له: إذا كان الشيطان يدنو منك ويوسوس وأنت في الصلاة ألا يستطيع أن يريك في الرؤيا كلباً أسود؟ فقال نعم وعرف خطأه وتاب إلى الله تعالى .